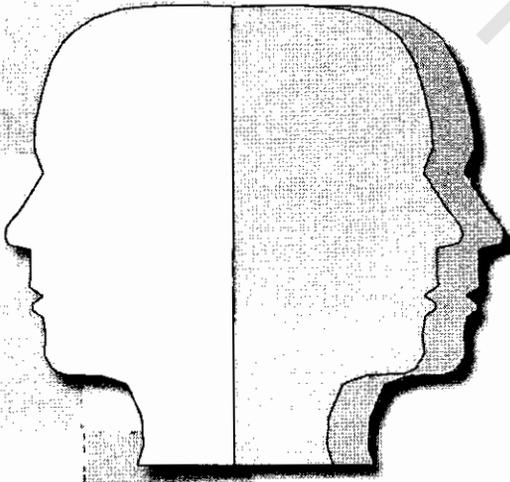


تتخصیات وصور



obeikandi.com

الرجل فوق السور .. وأذنه على الأرض



الفيلسوف هو الرجل الذى يعرف : ماذا يريد الإنسان .
المؤرخ هو الرجل الذى يعرف : ماذا فعل الإنسان .
أما السياسى .. فهو الذى يعرف : ماذا يفعل الإنسان .
فرجل السياسة ، اذن ، مهمته أصعب من المؤرخ .. وأعتقد من مهمة الفيلسوف . إنه يبدأ بالحاضر .. لكى يصل إلى المستقبل . وهو لا يملك فى سبيل ذلك سوى أداة واحدة : الاستكشاف . فالاستكشاف هام فى السياسة ، مثلما هو فى الحب .. وهام فى الحرب . من هنا يقول المؤرخون دائما إن السياسى رجل .. مهمته أن يجلس عاليا فوق السور .. بينما يحتفظ بأذنيه على الأرض .
والسياسة وجدت منذ وجد العالم الذى نعيش فيه . قبل ٢٣٠٠ سنة قال أرسطو : إن الإنسان - بطبيعته - حيوان سياسى .
ومنذ أرسطو حتى الآن اختلفت مفاهيم السياسة وتطبيقاتها .
فى البدء كان العالم ينقسم بين اثنين فقط : الله .. وقيصر . ولذلك كان يقال : ان السياسة هى فن منع الناس من التدخل .. فيما يعنيههم .
لكن العالم فى العصر الحديث أصبح ينقسم بين ثلاثة : الله .. وقيصر .. والناس . فالشعب - أى شعب - أصبح هو محور السياسة وطاقاتها المحركة . ولذلك أصبحت للسياسة معان جديدة .

• جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٦٧/٩/٩ .

أن لينين مثلا يقول : إن السياسة .. هي اقتصاد مركز . و نابليون يقول : السياسة تخلق الحوادث .. وليس العكس . وبسما رك يقول : السياسة .. هي فن التعامل فى حدود الممكن . أما ميكيا فيلى فيقول : لا أخلاق فى السياسة . وبعد ٤٠٠ سنة جاء شخص آخر فى الشرق الأوسط - هو ديفيد بن جوربون الزعيم الحزبى فى اسرائيل - ليرفع نفس الشعار مرة أخرى : لا أخلاق فى السياسة .



والواقع ان السياسة هى مزيج من كل هؤلاء : لينين و نابليون و بسما رك و ميكيا فيلى . أصبحت مهمة السياسة تأتى بعد المؤرخ ، وقبل الفيلسوف . ومن حاصل جمع السياسة والسياسيين خرج فى السنوات الأخيرة شىء جديد اسمه : النظرية السياسية . ما هى النظرية السياسية ؟

هذا هو السؤال الذى تخصص فيه انسان مصرى مؤخرا ، وظل يدرسه ١٧ سنة . إنه يقول : إن النظرية السياسية هى مختلف الوسائل التى تسمح بالتحكم فى ، وضبط ، النشاط السياسى للأفراد والجماعات .

والكلام قد يبدو صعبا فى البداية . ولذلك سأذهب معك الآن إلى هذا الإنسان المصرى لكى يفسر لنا أكثر : ما هى النظرية السياسية ؟

لكن دعنى أولا أقدم لك هذا الرجل . إنه عبارة عن حاصل جمع الأرقام التالية : ٩٧ كيلو (وزنه) .. متر و ٨٠ سنتيمتر (طوله) .. أربعون سنة (عمره) .. مائة جنيه (مرتبه) .. ثلاثون ألف كيلومتر (رحلاته) .. عشرة آلاف كتاب (مكتبته) .. ألفان وأربعمائة صفحة (مؤلفاته) .. أربع حجرات وصالة (مسكنه) .. ثلاث وعشرون بوصة (جهاز تليفزيونه - ماركة نصر) .

لكننى نسيت أهم حقيقة عنه .. فأولا : اسمه حامد ربيع ، ووظيفته الآن أستاذ بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة . ونسيت أيضا أن أقول انه ليس شخصا واحدا . انه دكتور واحد - هذا صحيح - ولكنه مضروب فى سبعة . فهو دكتور سبع مرات .. أو رجل حصل على سبع شهادات دكتوراه .. حسب ما يقول هو .

لقد حصل على شهادة الدكتوراه خمس مرات من جامعات ايطاليا فى : تاريخ القانون .. فلسفة السياسة .. العلوم السياسية .. العلاقات الدولية .. الحضارات القديمة . ثم حصل على الدكتوراه مرتين من باريس فى : القانون .. وعلم الاجتماع

السياسى . والخيط الرفيع الذى يربط بين شهاداته العلمية السبع هو موضوع واحد : النظرية السياسية .



- ماذا تقصد يا دكتور حامد بالنظرية السياسية ؟

ويقول الدكتور (سبع مرات) حامد ربيع : النظرية السياسية هى اصطلاح لم يتردد فى العالم إلا منذ عشرين عاما فقط . وفى تعريف النظرية السياسية نجد ثلاثة اتجاهات . الإتجاه الأول يقصد به الفلسفة السياسية . إنه اتجاه قديم ، ظهر أساسا فى القرن التاسع عشر . أما المفهوم الثانى لتعبير النظرية السياسية فهو المفهوم الماركسى . هذا المفهوم يرى أن النظرية السياسية ليست إلا علما تطبيقيا .. يدور حول استخلاص نتائج الخبرة الماركسية فى مختلف المجتمعات . أما المفهوم الثالث - الحديث والمسلم به - للنظرية السياسية فيقول إنها عبارة عن مختلف الوسائل والأدوات الفكرية والتجريبية التى تسمح بالتحكم فى النشاط السياسى .

وبهذا المعنى فإن كل منا يصدر يوميا - أو ينفذ - قرارا سياسيا . وبهذا المعنى أيضا فإن السياسة الحديثة تستخدم فى تحليلاتها العقل الإلكتروني .. وتلجأ إلى الأساليب الرياضية والإحصائية .. ويعبر عالم السياسة عن مفاهيم السياسة بمعادلات رياضية كعالم الذرة تماما . «وعندما تعطى لطفل صغير صورة فيل مثلا .. وهى ممزقة إلى أجزاء صغيرة .. دون أن يعرف أن الصورة لحيوان معين .. ثم يظل الطفل يجمع أجزاء الصورة ويوفق بينها .. إلى أن يكتشف فى النهاية أنها صورة لحيوان معين هو الفيل ..

«إن هذه العملية هى - فى بساطتها - تعبير عن نفس المهمة التى يقوم بها التحليل السياسى . فعالم النظرية السياسية ، عندما يحلل موقفا سياسيا معينا ، يظل يجمع العناصر المتناثرة .. ثم يلجأ إلى علمه وخياله معا .. لكى يخرج فى النهاية بصورة متماسكة تعبر قدر الإمكان عن الواقع الحى» .

وأسأل الدكتور حامد ربيع : ماهى شروط نجاح عالم النظرية السياسية ؟

ويرد معددا بيده اليمنى على أصابع يده اليسرى : أولا يجب أن يكون صاحب نظرة واضحة وصريحة وحكم قاطع على الأحداث .. أى لابد من موقف سياسى واضح من

البداية . هذا لايعنى أن عالم النظرية السياسية يجب ألا تكون وظيفته مطلقا التصفيق والطبل والزمر على غرار جماعة المنتفعين الذين يزدان بهم كل نظام سياسى .. والذين وجدوا منذ أن وجدت السلطة ويريقها ..

«بعد ذلك هناك ضرورة توافر الإعداد المهنى للممارسة السياسية .. فالسياسة اليوم لم تعد هواية . والسياسة اليوم ، كأي مهنة أخرى ، لا بد لها من دراسة طويلة إلى جانب المواهب الطبيعية . والسياسى كالجراح مثلا .. يجب أن يكون لديه استعداد معين وثقافة أكاديمية معينة . فكما أن حلاق الصحة مهما ارتفع بخبرته لايمكن أن يصبح جراحا .. فكذلك الممارسة السياسية ..

«والسياسة هنا إطارها واسع جدا . إن إقامة مدرسة مثلا فى هذه القرية دون تلك .. هو قرار سياسى . وإقامة مصنع لإنتاج هذه السلعة دون تلك .. هو قرار سياسى . والسياسة نفسها مستويات تتراوح بين السياسة الخارجية وبين اتخاذ القرارات السياسية وبين التنفيذ ثم المتابعة . ولكل مستوى شروطه ومواصفاته . فالابتكار والقدرة على التنبؤ الدقيق شرطان أساسيان فى خبير السياسة الخارجية .. بينما الأمانة فى النقل والاستقبال ثم الارسال شرط له الأولوية فى المنفذ السياسى».

وأسأل من جديد : ما هو الفرق بين السياسة .. والنظرية السياسية ؟

ويرد حامد ربيع : السياسة هى تدبير أمور الدولة . هى قيادة مجتمع ما . وبهذا المعنى فكل منا سياسى بشكل أو بآخر . الأب سياسى داخل أسرته . والناظر بمدرسته . والموظف بمكتبه . أما النظرية السياسية فهى اكتشاف القوانين التى تحكم التطور السياسى بواسطة البحث العلمى . إنها تفسير لظاهرة السلطة .

سؤال آخر : ماذا يلفت نظرك فى دراسة التاريخ السياسى المصرى المعاصر ؟

ويرد : هناك ظاهرتان فى تاريخنا السياسى . أولا : ان جميع الحضارات الأجنبية التى دخلت إلى مصر انتهت باندماجها فى الواقع المصرى .. أى حدثت لها عملية تمصير.. بينما لم تكن القاعدة كذلك فى مجتمعات أخرى كثيرة . قارن مثلا بين الحضارة الإنجليزية عندما دخلت مصر بعد الإحتلال فى سنة ١٨٨٢ .. وبينها عندما دخلت إلى الهند . فى الهند حدث تجاوب حضارى . فى مصر لم يحدث .

«هذه واحدة . أما الظاهرة الثانية فهي وجود تقاليد ثورية مستمرة بغير انقطاع فى التاريخ المصرى . كانت هناك تقاليد ثورية يمثلها عمر مكرم أيام محمد على . ويمثلها أحمد عرابى فى ١٨٨١ ثم سعد زغلول فى سنوات ثورة ١٩١٩ .. وللأسف لم تدرس هذه التقاليد بطريقة علمية ..

«ومرة أخرى .. لو أتاحت هذه الدراسة العلمية للتاريخ السياسى المصرى ، لاكتشفنا أنه فى سنة ١٨٨٢ عرفت مصر نظاما سياسيا أكثر تقدما مما كان موجودا فى كل أوروبا بما فيها روسيا وإيطاليا وألمانيا (وباستثناء فرنسا وبريطانيا) . كان هذا النظام يسلم ، على الأقل ، بمبدأ مسؤولية السلطة السياسية أمام ممثلى الشعب .. ولذلك أسقطه الإنجليز بمجرد احتلالهم لمصر».



قلت متحدثا عن الفترة التالية فى تاريخ مصر : هل تستطيع أن تحدد لى شخصية مصرية تمثل نموذجا للكفاءة السياسية من الوجهة العلمية ؟

قال حامد ربيع : طبعاً . هذا النموذج واضح جدا فى سعد زغلول . لقد كان تعبيراً عن قوة وصلابة فى الشعب المصرى يندر أن تجدها فى مجتمع آخر معاصر فى تلك الفترة . خذ مثلاً عندما جاءت لجنة مينلر الإنجليزية إلى مصر لبحث أسباب الاضطرابات إبان ثورة ١٩١٩ . ان اللجنة لم تستطع أن تجد مصرية واحدا يتفاوض معها . إن قيمة هذه الظاهرة تتضح حينما نتذكر أنه لم يكن فى مصر خلال تلك الفترة أى رأى عام منظم ، أو وسائل منظمة للثقافة العامة ، كما لم تكن هناك أية حماية لسياسى مصرى ، وكانت وسائل التعذيب الوحشى متبعة على نطاق واسع . ومع كل ذلك لم يقبل مصرى واحد التفاوض مع لجنة ميلنر . وحينما اخترت لك سعد زغلول نموذجا للبراعة السياسية .. فإننى اخترته فى إطار العصر الذى عاش فيه والظروف التى أحاطت به .

وأسأل من جديد : ماهو النبوغ السياسى ؟

قال حامد ربيع : هو معرفة واقع مجتمع معين والتعبير عنه بأساليب هذا المجتمع .

قلت : ومن هو الرجل السياسى ؟

أجاب : هو الرجل الذى يؤمن بفكرة ويسعى لتحقيقها عن طريق تغيير المجتمع الذى يعيش فيه . فالرجل السياسى لا يمكن أن يكون سلبيا ، ولا يمكن أن ينزل عن

الحوادث ، أو يعزلها عنه ، ويجعل هدفه فى الحياة تطويع ظروف المجتمع للتجاوب مع هذا التغيير .

هنا وجدت نفسى أعود إلى التاريخ السياسى المصرى .. فسألت الدكتور حامد ربيع : كيف تحدد التطور السياسى الذى جرى فى مصر خلال تاريخها الحديث ؟

قال أستاذ العلوم السياسية : الواقع ان هناك ثلاث ثورات دخلتها مصر وتواجهها فى وقت واحد . فأولا هناك الثورة الوطنية .. أى الثورة التى تستهدف تحقيق الإستقلال وعدم التبعية .. وقد بدأت منذ التدخل الأجنبى فى شئون مصر أيام الخديو اسماعيل .. وكان الزعيم الأول لهذه الثورة هو أحمد عرابى .. وظلت حلقاتها تتابع إلى أن استكملت مصر استقلالها السياسى بعد ثورة ١٩٥٢ ..

«أما الثورة الثانية فهى الثورة الحضارية .. بمعنى الثورة لتطوير قيمنا الاجتماعية ونظمتنا الثقافية حتى تصبح صالحة للقرن العشرين . وهذه الثورة بدأت منذ نهاية القرن الثامن عشر وحتى قبل وصول محمد على إلى الحكم . ورغم أنها تعثرت فى أكثر من مرحلة من مراحلها فإننا مانزال فى مدخلها ..

«أما الثورة الثالثة فهى الثورة الوحدوية أو الاندماجية . وهى تعنى اندماج العالم العربى فى دولة عربية واحدة . وهذه الثورة لم تبدأ فى التبلور إلا بعد الحرب العالمية الثانية ..

«إن كل من هذه الثورات الثلاث لها طبيعتها المستقلة . وتاريخنا السياسى يواجهها جميعا فى وقت واحد ، وهذا يزيد من صعوبتها . خذ مثلا غرب أوروبا . إنه يمر الآن بالثورة الوحدوية أو الاندماجية ، فقط ، لأنه انتهى من الثورتين الأولى والثانية . بينما دول افريقيا تواجه الثورة الأولى لتحقيق الاستقلال الوطنى سياسيا واقتصاديا ولم تدخل بعد أيا من الثورتين الثانية والثالثة . خذ مثلا الهند أيضا . إنها تواجه الآن الثورة الحضارية فقط ، لأنها انتهت من الثورة الوطنية ، ولا تواجه الثورة الاندماجية».

سألته : ماهو مقياس الثورة الحضارية فى رأيك ؟

أجاب : المقياس هو مدى احتفاظ الدولة بمجموعة من القيم التى يجب على الفرد أن يحترمها بدافع من وعيه الخاص . تستطيع أن تسميها روح الجماعة . تستطيع أيضا أن

تسميها احترام المصلحة العامة . فبهذا المفهوم لاتنحصر المصلحة العامة فى نصوص أمره وقوانين جامدة .. بل تصبح جزءا من التقاليد الاجتماعية والوعى الاجتماعى . وأحب أن أنبه إلى أن هذا المفهوم للدولة العصرية يختلف عن مفهوم آخر موجود فى الفكر السياسى . إن المفهوم الثانى يقصد إلى ضرورة وجود دولة حديثة . دولة كفاء . دولة قوية . وأنا أتذكر أحد الزعماء الفرنسيين حينما رد على روبسبير ابان الثورة الفرنسية قائلا له : اختر الشيوعية أو اختر الإشتراكية أو الفردية .. اختر كما تشاء .. ولكن لا بد - وقبل كل شىء - أن تعطينى دولة قوية .

سؤال آخر : هل هذا المفهوم للعصرية له أساس سابق فى الفكر السياسى عندنا ؟

قال بعد أن خلع عن عينيه نظارته الطبية ووضع يده اليمنى على جبهته مستذكرا : نعم . لقد كان مفهوم الدولة العصرية موجودا فى الحضارة الإسلامية .. أو على الأقل .. موجودا نظريا فى كتابات فقهاء الحضارة الإسلامية . خذ مثلا الفصل ١٥٢ من مقدمة ابن خلدون . لقد تصور فيه أنه يكتب خطابا إلى أحد الحكام وعدد له مظاهر الدولة الكفاء - أو العصرية أو القوية .. حسب التعبير الذى تفضله . قال ابن خلدون إن الحاكم يجب أولا أن يكون ناجحا فى حياته الخاصة .. ثم يجب ، وهذا ضرورى ، أن يمتنع عن التدخل فى أعمال المتخصصين .. أو الفنيين أو الخبراء بالتعبير المعاصر ..

«بل وأقول لك أكثر من ذلك : إن ابن المقفع عبر أيضا عن نفس المفاهيم فى رسالة مشهورة له قبل ابن خلدون واسمها رسالة الصحابة».



بالمناسبة : أود أن أنبه القارئ إلى شىء لافى للنظر . فالجامعة العبرية فى اسرائيل هى من أكثر جامعات العالم اهتماما بدراسة مؤلفات ابن خلدون .. واهتماما بإجراء الأبحاث حولها . أليست تلك ظاهرة غريبة حقا ؟

وبالمناسبة ، مرة أخرى ، تذكرت اسرائيل فور الحديث عن الجامعة العبرية ، فسألت الدكتور حامد ربيع : هل تعتقد أن اسرائيل تمثل ايديولوجية خاصة فى الشرق الأوسط ؟ ورد أستاذ العلوم السياسية : طبعاً .. لأن اسرائيل دولة قامت أساسا على فكرة التعصب العنصرى . وبالنسبة لإسرائيل هناك نقطتان أود الضغط عليهما . فأولا - إن

اسرائيل من الداخل مكونة من مجتمع غير متجانس . والشىء الوحيد الذى يجمع بين سكانها هو أنهم .. يهود . ولذلك نجد أن الحروب المتكررة التى تخوضها اسرائيل ليست فقط مسألة سياسية . بل تمثل الفرصة الوحيدة لتحقيق الاندماج والانصهار بين العناصر غير المتجانسة التى يتكون منها مجتمع اسرائيل .

«وثانيا : ان اسرائيل تمثل امتدادا لأوربا فى الشرق الأوسط . فهى تقوم بدورها الاستعمارى والعسكرى نيابة عن القوى الأوربية والغربية .. قديمها وجديدها وصولا إلى الولايات المتحدة» .



وأمسكت بساعتي فاكتشفت إنه قد مضى ساعتان وربع ساعة على هذا الحديث مع الدكتور حامد ربيع .

و ... لقد قلت فى أول هذا الحوار إنه رجل واحد مضروب فى سبعة . وأسحب الآن تلك الجملة لكى أكتبها من جديد هكذا : انه عقل واحد .. مضروب فى سبعة . وسأكتب أيضا : إن قيمة أى أمة ، على المدى الطويل ، هى قيمة الأفراد الذين تتكون منهم . ولكن .. هل هذه حقيقة جديدة ؟



حجر . حجر آخر . يمر الإنسان ويرى الحجريين يقعان جنباً إلى جنب . ولكن : ماذا يعرف هذا الحجر عن الحجر الذى يجاوره ؟ أو .. ماذا تعرف مياه النيل عن البحر الذى تصب فيه ؟ أو .. هل تعرف النجوم فى السماء أن هناك أرضاً تحتها ترصدها وتتابعها ؟ أو - للمرة الأخيرة - ماذا يعرف الجيل القديم عن الجيل الجديد ؟
إنهما جيلان . يعيشان فى عصر واحد . فوق أرض واحدة . غالباً داخل منزل واحد . ومع ذلك ، فكل جيل منهما غريب عن الآخر . غريب تماماً . سماء مختلفة . قيم مختلفة . بطولات مختلفة . أحلام مختلفة .
نحن إذن غرباء . غرباء فوق نفس الأرض ، وداخل نفس المنزل .
غرباء .. لماذا ؟

لماذا هذا الشعور بالغربة بين الذين هم آباؤنا مؤقتاً ، وبيننا نحن .. أبنائهم مؤقتاً ؟
لأن صفة الأبوة عند الجيل القديم ، وصفة الشباب عند الجيل الجديد .. لاتعطى لأحدهما ميزة على الآخر . الأبوة والشباب هى أصلاً كالرجولة والأنوثة : إنها ليست اختلافات فى النوع - فليس أحدهما أفضل من الآخر - ولكنها اختلافات فى الوظيفة . ومشكلة الجيل الجديد - وأنا واحد منه - أنه جيل بلا وظيفة . وبدقة أكثر : نحن جيل يبحث عن وظيفة . عن اختصاص . عن دور . هذه هى المشكلة .

لماذا هذه المشكلة ؟ ولماذا الآن ؟ ثم .. لماذا مع هذا الرجل ؟ لماذا أثيرها مع الدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن السكرتير العام المساعد لمنظمة الأمم المتحدة ؟ إنه مصرى مثلى

• جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٦٩/٨/٣ .

- هذا صحيح - ولكننا نقف في موقعين مختلفين . إنه من الجيل القديم ، وأنا من الجيل الجديد . حكم السن . إنه من الآباء .. وأنا - حتى الآن على الأقل - مازلت من الأبناء . حكم الصدفة . إن رأسماله هو ماضيه . وأنا رأسمالي هو مستقبلي . صفقة غير متساوية . لماذا إذن هذا الرجل ، وكل شيء فينا يبدو ضد الآخر من البداية . كل شيء فينا غريب عن الآخر مقدما .

إن السبب بسيط بقدر ما هو محدد : إن هذا الرجل هو واحد من القليلين الذين حلوا المشكلة . واحد من الذين حولوا التناقض المبدئي بين الجيل القديم والجيل الجديد إلى ميزة لصالحه . واحد من الذين تخصصوا في إعطاء فرص للجيل الجديد ، لا من الذين تخصصوا في سحب الفرص من الجيل الجديد . واحد من الذين استخدمهم الجيل الجديد جسرا إلى المستقبل ، ولم يجدهم سدا عاليا يحجز عنهم المستقبل . ثقة في النفس . إن عشرات من الشباب البارزين في بلدنا الآن هم أمثلة حية لما أقول : في البحوث الذرية ، في التخطيط ، في الإدارة ، في الصناعة .

ابراهيم حلمي عبد الرحمن هو إذن استثناء على قاعدة عامة . أليس من الطبيعي إذن أن نحاول فهم الرجل ، بعد أن حاول هو فهمنا .. نحن الجيل الجديد ؟ إنني أجلس معه في مكتبه بالدور الثامن عشر من مبنى الأمم المتحدة بمدينة نيويورك . مبنى ضخم أقيم في سنة ١٩٥١ . إنني في مقعد المستمع ، بينما ابراهيم حلمي عبد الرحمن يتكلم :

«... إن الانفصال الحالى بين الأجيال له أسبابه المشتركة في العالم كله . بالإضافة إلى أسبابه المحلية في كل مجتمع ..

«إن التطور التكنولوجى والعلمى الذى تم فى العشرين سنة الأخيرة مثلا يبلغ أضعاف التطور المائل الذى حققته البشرية طوال ألف سنة . كل يوم اختراع جديد . منتج جديد . وسيلة جديدة .

«قبل عصر محمد على فى مصر مثلا .. ظل المجتمع يأكل ويعيش ويلبس ويعمل بنفس الطريقة مئات السنين . بل حتى الأغاني والمواويل ظلت هى هى لم تتغير . أما الآن فابنتى مثلا تفضل أغاني مختلفة عن ما أفضله أنا .. فما بالك باختلاف تفكيرها عن تفكيرى أنا ؟

«هناك إذن عوامل كثيرة - علمية وتاريخية وثقافية - حولت التوازن المستمر بين الجيل القديم والجيل الجديد إلى خلخلة مستمرة . هناك أحماض كيماوية تقلب علاقة الجيلين يوما بعد يوم . هناك تفاعل مستمر إذن . وحينما لا يتم هذا التفاعل في جو صحي مفتوح تكون النتيجة دائما هي سوء فهم مستمر بين الجيل القديم والجيل الجديد . إنك تستطيع الآن أن تقسم الناس حسب أعمارهم بأكثر مما تستطيع أن تقسمهم حسب مركزهم الاقتصادي . مجرد اختلاف السن أصبح مؤشرا على اختلاف التفكير واختلاف أسلوب النظر إلى الأمور .

«ومع ذلك فإن سوء الفهم هذا من الممكن تفاديه مقدما لو أن المناخ العام في المجتمع يعطى الفرصة أولا بأول لتبادل وجهات النظر بين الجيل الجديد والجيل القديم . إذا لم يحدث ذلك تكون النتيجة تراكما مستمرا للاستياء المتبادل بين الجيلين . مرض . إن أخطر سمات هذا المرض أنك لا تكتشفه إلا متأخرا جدا . إنك تنظر إلى مياه النهر فتتصور أنها هي لم تتغير منذ سنين ، مع أن تيارات المياه تندفع تحت السطح باستمرار . لقد كان هذا هو سبب اصطدام الشباب بالجيل القديم في أمريكا وألمانيا وفرنسا وفي العالم كله ، وهي الظاهرة التي نتناقش فيها الآن .

«إنك تعطيني أكثر مما أستحق حينما ترى أنني أعطيت فرصا ضخمة لعدد كبير من الشباب . في الواقع كانت هناك ظروف موضوعية تسمح بذلك . مثلا ، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بدأت كل المجتمعات - المنتصرة والمهزومة - تحس بحاجتها إلى إعادة النظر في نفسها . إلى مراجعة قيمها وأسلوب تفكيرها . السبب : إن الحرب خلقت توازنات جديدة ومراكز جديدة وكشفت في نفس الوقت عن أخطاء قديمة . النتيجة : الحاجة إلى دماء جديدة . إلى أفكار جديدة . هذا في حد ذاته حافز قوى لإعطاء فرص للجيل الجديد وفتح المجال أمامه ليشارك ويفكر ويعمل و...»



التليفون يدق . الحديث ينقطع . السماعرة ترتفع . على الطرف الآخر يتكلم أوثانت السكرتير العام للأمم المتحدة . يبدو أن الحديث لن يكون قصيرا . وبينما كان الدكتور ابراهيم يتحدث مع أوثانت كنت أنا أراجع نقسى في بعض انطباعاتي عن الرجل .

إن الدكتور ابراهيم حلمي عبد الرحمن يبدو لأول وهلة كأحدى شخصيات قصص نجيب محفوظ : متهادن ، مستسلم ، مستمر ، ساخر . إنه يبدو هكذا مع أنه بعد لحظة

يبدو أقرب إلى الشخصيات المنتشرة في مسرحيات توفيق الحكيم : مفكر .. محاور .. منطقي .. مشغول بالمستقبل .. وساخر . إنه إذن عنصر السخرية الذى يجعلك تخلط بين أصل شخصيته وطبيعتها .

لكننا لسنا فى حاجة إلى الاستعانة بشخصية تشببه فى قصص أحد الكتاب . السبب : أن الرجل قد نحى شخصيته جانبا ، ثم قام هو بتأليفها وإخراجها وتصويرها - بل حتى بنقدها - على موضة الأيام التى ولد فيها (يناير سنة ١٩١٩) .

ان الكلمات تخرج من فمه بسهولة ولكن بهدوء . ابتسامته مفاجئة ولكن مشرقة . نظارة طبية تحتضن وجهه ولكن برفق . أذنه فى مكانها تماما . شعره بدأ يتململ فوق رأسه بعد أن ظل ثابتا فى مكانه خمسين سنة . مدة كافية . والرجل نفسه تبدو عليه المتعة عندما يناقش ، ولكن الأسئلة التى تتناول حياته الشخصية مثلا لا تأخذ منه فى الإجابة سوى مجرد «نعم» أو «لا» أو «لم أكن» . مع ذلك ، فإننى سأحذف هذه الكلمات عندما أتناقش معه . وها نحن نعود إلى المناقشة .

أقول : تعرف .. أحيانا أحس أن علاقة الجيل القديم بالجيل الجديد تماثل علاقة الاستعمار الجديد بالدول النامية . إن الجيل القيم يظل يتحكم فى حياتنا وتفكيرنا أطول وقت ممكن . ثم يكتشف الجيل القديم أن جلاءه عن حياتنا أمر حتمى . حينئذ فقط يعطينا الاستقلال . استقلال وهمى . استقلال لم يتم إلا بعد أن اكتشف الجيل القديم وسائل جديدة للتحكم فى حياتنا وتفكيرنا . هذه هى الظاهرة التى لمستها فى أمريكا وألمانيا وفرنسا أيضا .

- ولكن هذه النتيجة يمكن تفاديها ..

- حسنا .. اخبرنى كيف تفاديته أنت ؟

- لم أكن أخشى من أحد على أى مركز شغلته .

- لماذا ؟

- لسبب بسيط . لقد حرصت دائما على ألا أكون عبدا للوظيفة . للسلطة . إن الوظيفة هى مجرد وسيلة للعمل . ومن ناحيتى فإننى لم أكن أشغل وظيفة إلا إذا كنت قادرا مقدما على الاستغناء عنها فى أى لحظة . كنت أحرص دائما على حقى فى تطبيق الوظيفة .

هذه واحدة . نقطة أخرى : إننى كنت وما أزال حريصا فى حياتى العادية على أن أعيش عند الحد الأدنى المقبول . الحد الأدنى من الالتزامات المادية أو الأدبية . ربما كان بعض السبب فى ذلك أزمة مالية مرت بى فى مطلع حياتى . أزمة خرجت منها بنتيجة أساسية : يجب أن أكون قادرا على نفسى أولا .. قبل أن أكون قادرا على غيرى . النقطة الثالثة هى أننى كنت حريصا على ألا أكون الرجل الأوحى فى أى مجال أعمل به . لا بد من صف ثان . إن اختفاء الصف الثانى فى أى وقت هو خرافة . الصف الثانى موجود دائما . ووجود الصف الثانى شرط جوهرى لنجاح الصف الأول . حتى الأنبياء كان لهم حواريون . الفارق الوحيد هو إحساسك بأنك تمارس رسالة أو بأنك تعيش بمجرد الأقدمية . إذا أحسست بأنك تمارس رسالة فأنت ستكون حريصا على استمرارها من خلال صف ثان يخلقك .

قلت : ألا يتغير شعورك هذا عندما يحقق أحد تلاميذك نجاحا أكبر مما حققته أنت ؟

أجاب الرجل : مطلقا . المسألة مسألة رسالة كما قلت لك . عندما أحب الموسيقى مثلا .. فإننى أتمنى أن يحبها معى كل الناس . عندما أكون تاجرا صغيرا مثلا ويصبح ابنى أستاذا فى الجامعة .. فإننى لن أشعر بمنافسة منه .. بل إننى سأكون مسرورا وفخورا به لأن النجاح امتداد لكل من ساهم فيه .



توقفت عند الجملة الأخيرة . إنها فى مكانها جدا . فى الواقع هى تنطبق تماما على الدكتور ابراهيم نفسه . لقد قلت قبل ذلك إن عددا كبيرا من الشباب البارزين فى بلدنا الآن أخذوا فرصتهم الأولى منه . هنا بالضبط نكتشف أن ابراهيم حلمى عبد الرحمن هو رجل .. بأثر رجعى . إنه رجل اليوم .. بما حققه لنفسه : أكبر منصب يتولاه مصرى فى منظمة دولية . وهو رجل بما حققه لغيره : إناس ساعدهم على شق الطريق فأصبح من بينهم علماء ووزراء . وهو رجل منذ التاريخ الذى اكتشفهم فيه عند نقطة مبكرة تماما من حياتهم .

ولعل الشئ الذى ساعده على ذلك هو البيئة التى تربي فيها والمجالات التى عمل بها . لقد ولد فى قرية «كفر الولجا» بمنيا القمح (محافظة الشرقية) : بيئة قروية تماما بعيدا عن نفاق القاهرة . ولقد عاش الطفل واحدا ضمن اثنا عشر أخا وأختا : عائلة عادية

بمقاييس تلك الأيام . ثم حصل الشاب على بكالوريوس الفلك من كلية علوم جامعة القاهرة (١٩٣٨) بتقدير الامتياز : مؤشراً مبكراً لإجتهاده . بعدها حصل الرجل على الدكتوراه فى الفلك من جامعة «أدنبره» ببريطانيا . احتكاك مبكر بحضارة مختلفة . إلى هنا وحياته تسير بأنغام بطيئة تتجه نحو السرعة : مدرس بكلية العلوم جامعة القاهرة . أستاذ مساعد . انتداب فى مجلس الوزراء بعد قيام الثورة . سكرتير لمجلس الوزراء (١٩٥٤) . سكرتير للهيئة العليا للتخطيط (١٩٥٤) حينما دخلت كلمة التخطيط الاقتصادى لأول مرة فى القاموس السياسى المصرى الجديد . سكرتير عام لمؤسسة الطاقة الذرية منذ أنشأها جمال عبد الناصر (١٩٥٥) تنبهاً لمجال علمى جديد يجب أن تلحق به مصر . سكرتير للجنة التخطيط القومى (١٩٥٥) . سكرتير للمجلس الأعلى للعلوم (١٩٥٦) . وكيل لوزارة التخطيط .. مدير لمعهد التخطيط و ... لا ... إن القائمة طويلة طويلة . يكفى أنه منذ سنة ١٩٦٣ اختارته هيئة الأمم المتحدة ليكون سكرتيراً عاماً مساعداً لها لشئون التنمية الصناعية . وفى يناير ١٩٦٧ أنشئت منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية فأصبح مديراً لها . إن مقر المنظمة الآن هو مدينة فيينا عاصمة النمسا . ولكن الدكتور ابراهيم يسافر إلى نيويورك من وقت لآخر ليناقدش تقارير نشاط المنظمة مع أوثانت السكرتير العام للأمم المتحدة . وأنا ألتقى به الآن فى إحدى هذه المرات . الساعة السابعة مساءً . كل موظفى الأمم المتحدة انصرفوا بعد انتهاء مواعيد عملهم . لا يعمل فى المبنى الآن سوى مجلس الأمن . والمكتب الوحيد المفتوح هو مكتب الدكتور ابراهيم .

داخل المكتب نستأنف الحديث : أنت عملت فى مجالات كثيرة .. من الفلك إلى الذرة إلى الصناعة إلى التخطيط إلى الإدارة .. ماذا يربط هذا كله ؟

- المنطق العلمى .

- ما هو المنطق العلمى ؟

- إنه مقدمات تؤدى إلى نتائج . الارتباط بين النتائج يتطلب التجربة . تعدد التجارب يعطيك نظرية . النظرية تحتاج دائماً إلى تأكيد .

- ما هو التفكير العلمى ؟

- إنه التفكير الذى لا يصل إلى نتيجة إلا بعد التجربة والتحقيق .

- هل يوجد مجتمع علمي ومجتمع غير علمي ؟
- ليس بالضبط .
- إذن سأغير السؤال : هل يوجد مجتمع مشجع للعلم ومجتمع غير مشجع له ؟
- طبعاً . المجتمع المشجع للعلم هو الذي يعطي للبحث العلمي قيمة كبرى ويحصل فيه العلماء على أضخم احترام اجتماعي . مثل هذا المجتمع يخلق العلم وينميه ويستفيد منه . وعلى العكس من ذلك مجتمع يتحدث عن العلم ولا يمارسه . يعلن احترامه للخبراء ولكن يبتعد عنهم . هذا مجتمع غير مشجع للعلم .
- تقصد مجتمع محصن ضد العلم ؟
- إنه محصن ضد المستقبل ، وليس ضد العلم فقط .
- ما زلت أسأل : ماذا يربط أيضا بين مجالات عملك السابقة غير المنطق العلمي ؟
- التخطيط يربط بينها . العلم يعتمد على تخطيط . الاقتصاد يعتمد على تخطيط . الإدارة تعتمد على تخطيط .
- كم عدد أولادك ؟
- بنت واحدة .
- صدفة .. أو تخطيط ؟
- صدفة .. على ما أعتقد .



● إنه يعتقد ذلك . ربما . ولكن الرجل لم يترك أشياء كثيرة في حياته للصدفة . لقد قال منذ دقائق إنه يفضل أن يعيش حياته عند الحد الأدنى . قليل من كل شيء .. ولكنه ما يزال مقبولا . هذا صحيح . إنه يقول كلمة « لا » لنفسه كثيرا قبل أن يقولها لغيره . لقد عاش حياته بالقاهرة في شقة متواضعة بإيجار شهري تسعة جنيهات . كان يستطيع دائما أن يغيرها بشقة أفخم في حي الزمالك أو مصر الجديدة مثلا . لكن : لا . مازالت الشقة هي نفسها في حي المنيل . لا يدخن . منتظم الصيام والصلاة . يقرأ كثيرا ويكتب أقل . السبب صحي . لا سينما . لا تليفزيون . لا وقت .. حتى في فيينا أو نيويورك .

وأسأله : هل أنت سعيد ؟

- ربما ..

- لماذا «ربما»؟

- لأن السعادة ومضات . ولكن هناك شيء آخر هو الرضا .. أو الارتياح . إنه يختلف عن السعادة . الرضا معناه أنك تقبل الحياة على ما هي عليه .

قلت : هذا استسلام وليس رضا ..

أجاب : ليس دائما . فأحيانا يكون السخط على الحياة مرضيا لك .



ونعود خلفا . ولا أدري لماذا أحرص على مناقشة الفجوة بين الجيل القديم والجيل الجديد مع الدكتور ابراهيم حلمي عبد الرحمن بالذات . الرجل يعيش الآن في مجتمع مختلف . وبرغم ماضيه العريض فإن اسمه لا يعيش معنا دائما . شيء طبيعي بقدر ما هو متناقض . طبيعي لأننا نجد - بحكم الخبرة - أن البرميل الفارغ صوته أعلى من البرميل الملىء .

والدكتور ابراهيم رجل مليء ، جسما وعقلا . ولذلك أسأله : أرجو أن تعتبر نفسك مؤقتا من الجيل القديم . كيف إذن ترى حدود المشكلة بيننا وبينكم ؟

- الحدود واضحة . انكم - كجيل جديد - قد أعلنتم تمردكم علينا واستياءكم منا ، ومعكم فى ذلك الحق والقدرة . لقد حققنا لكم الشيء الكثير . ومع ذلك فأنتم تقابلونه بجحود كامل . حتى فى هذا ربما يكون معكم الحق أيضا ، لأننا صنعنا كل شيء بغيركم . لأننا حرصنا على أن نقوم ببطولة المسرحية ، واخترنا لكم مقاعد المتفرجين .

قلت : آسف لمقاطعتك ولكنك الآن تعزف على وتر مؤلم . المشكلة فعلا هى أن الجيل القديم يحدثنا دائما عن كم كان أمسه قاسيا ويومه مناضلا وغده مشرقا . بيد أن يومهم ذلك قد أصبح أمسنا نحن ، وغدهم أصبح يومنا . لقد اختاروا معاركهم .. وحاربوها . وعلينا نحن أن نختار معاركنا وأن نحارب يومنا . هذا هو حتى ما أحسسته جاريا فى أمريكا وفرنسا وألمانيا ومجتمعات أخرى غيرنا .

وعاد الرجل إلى الحديث : مع ذلك فإننى أرى أن الجيل القديم هو الذى يجب أن يساعد الجيل الجديد على الوصول إلى قرار . المشكلة هى أن الجيل الجديد بدأ يعشق التمرد على القيم السائدة بغير أن يحدد بالضبط ما هى القيم البديلة . لايهم ..

- إذن .. لمن المستقبل ؟
- المستقبل واضح . المستقبل دائما هو لكل جيل جديد . إن التمرد على القيم السائدة قد يبدو لفترة مؤقتة كما لو كان مجرد هدم للأمر الواقع أو حتى مجرد اندفاع لإثبات الوجود . لكن كل القيم الجديدة بدت هكذا في البداية .
- .. وإلى أن توجد القيم الجديدة .. ما هو الحل ؟
- لا أرى حلا . أرى فقط فترة حتمية من الضياع قد تطول أو تقصر . الضياع هنا هو غير الإنحلال .. فما أسهل الإتهام . انه ضياع مؤقت حتى تتضح القيم الجديدة البديلة . أرجو أن تكون قيما أفضل .
- إذن .. ما هي الخلاصة ؟
- الخلاصة هي اننى متفائل ولست متشائما .. مع العلم بأن استمرار الخلخلة يمكن أن يؤدي إلى عواقب خطيرة . إن الإطار الذى تتم فيه الخلخلة أكبر كثيرا مما كان مألوفاً . كل شىء الآن محل مناقشة ومراجعة وتساؤل . كل شىء يعاد النظر فيه .. ابتداء من السياسة الى الاقتصاد الى العلوم الاجتماعية الى العادات والتقاليد ..



قلت للدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن : تكلمنا حتى الآن عن كل شىء تقريبا ما عدا مسألة أساسية .. عمك فى الأمم المتحدة ودور منظمة التنمية الصناعية التى ترأسها ..

رد الرجل : أنت الذى تختار موضوعات المناقشة ولست أنا ..

قلت : حسنا . بالنسبة لمنظمة التنمية الصناعية فأنا أعلم أن مقرها الرئيسى فى مدينة فيينا عاصمة النمسا ، وأنها أقيمت منذ أول يناير ١٩٦٧ كمنظمة تابعة لهيئة الأمم المتحدة هدفها تنمية التعاون الصناعى والاقتصادى بين الدول الأعضاء خصوصا الدول النامية ، وأنها تنفق سنويا عشرة ملايين دولار كمعونات فنية بالإضافة إلى عشرة ملايين أخرى تمثل ميزانيتها . وأعلم كذلك أن دولا نامية عديدة قد لمست بالفعل أهمية المعونات التى تتلقاها من المنظمة خصوصا فى مجال الخبرة الفنية (٤٠٠/٥٠٠ خبير) . فهل يكفى هذا بالنسبة للمنظمة ؟

- يكفى .. إلا قليلا . وما أود إضافته بسيط ولكن جوهرى . فمنظمة الأمم المتحدة نشأت أساسا باتفاق بين الدول الخارجة من الحرب العالمية الثانية منتصرة وأعطت نفسها

بتلك الصفة امتياز المقاعد الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن الدولي . مصر كانت نظريا من بين المدعويين من الولايات المتحدة في المؤتمر التأسيسي في سنة ١٩٤٥ للتصديق على ميثاق الأمم المتحدة . لكن عمليا استمرت الأمم المتحدة ناديا خاصا للقوى الكبرى . الجديد في الموضوع هو أن مصر في طبيعتها الجديدة ورؤيتها المستجدة لدورها خصوصا بعد ١٩٥٦ ثم دورها الملموس في المشاركة بقيادة كتلة عدم الانحياز - التي هي في جوهرها الدول النامية - فرضت على الخمسة الكبار بالمنظمة قبول توسيع عضوية مجلس الأمن الدولي ليصبح الأعضاء غير الدائمين عشرة بدلا من ستة . وشيء آخر : قامت الأمم المتحدة أساسا للتعامل مع الواقع الدولي سياسيا . الجديد هو رؤية العالم اقتصاديا وبالتالي مساندة الأمم المتحدة لهذا المنظور الجديد . الشيء الثالث هو أنني موجود هنا في مقعدى هذا ومكتبى هذا لأن مصر هي التي رشحتنى لهذا المنصب . ربما يرى البعض أنني هنا لأننى أستحق . ممكن . لكننى لم أكن لأوجد هنا أصلا لولا أن مصر أصبحت دوليا تستحق .

- إذن أسألك : بعد سنواتك الأخيرة من العمل في المجالات الدولية .. ما هو تقييمك لجدوى العمل الدولي المشترك ، خصوصا في إطار الأمم المتحدة ؟

دقائق من التفكير ثم أجاب الرجل : بالنسبة للأمم المتحدة فإنها كمنظمة تمثل ظاهرة حديثة نسبيا في العلاقات الدولية . دورها السياسى معروف . دورها الاقتصادى محدود . دورها فى تشجيع الصناعة مستجد وبالبحاح - حتى لا أقول بضغط - من الدول النامية وبالقدمة مصر . المهم هنا نقطتان . أولا : أن هذا الدور يبشر بالأمل برغم كل الصعوبات القائمة حاليا فى العلاقات الدولية . وثانيا : هذا الدور تتزايد أهميته يوما بعد يوم . لكن ما تزال هناك نقطة أخرى هامة : أن الأمم المتحدة ليست حكومة عالمية ، بمعنى أنها لا تملك سلطة اتخاذ القرارات بمفردها ، أو سلطة تنفيذ القرارات التى تتخذها . ففى مجال الصناعة مثلا ليس أمامنا كأمم متحدة سوى تقديم الخبرة الفنية للدول النامية . أما عبء التنفيذ ، وعبء النجاح .. فيظلان من مسئولية الدول النامية نفسها .



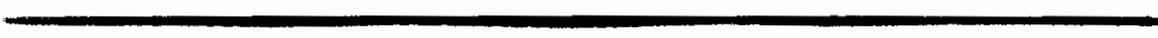
.. فعلا .

من المهم تماما أن نعرف الظروف الحقيقية لمنظمة الأمم المتحدة . إن طاغور - الشاعر الهندى البارز الراحل - كانت له أبيات شعرية تقول : يا قلبى اسمع ... صوت الرعد

فى السحاب ... يا قلبى كن شجاعا ، واقتحم ... واذهب إلى المجهول ..
أن داج همرشولد السكرتير العام الراحل للأمم المتحدة سمع تلك الأبيات ذات مرة فى
سنة ١٩٥٥ . يومها قال همرشولد : «إننى أعتقد أن هذه الأبيات تصلح لأن تكون شعارا
لهذه المغامرة التى تسمى .. الأمم المتحدة . إننا قد نسمع أحيانا صوت السحاب منذرا
بالبرق والرعد ، ولكن يجب ألا نفتقد أبدا الشجاعة التى تجعلنا نقتحم .. ونرحل إلى
المجهول» .

لقد رحل همرشولد . ولم تتم اللوحة . لكن أبيات طاغور ماتزال صادقة على الاثنين :
الأمم المتحدة .. والجيل الجديد . كلاهما يخوض آفاقا جديدة لم يسبقهما إليه أحد .

obeikandi.com



مندوبنا .. فى القرن الـ ٢١



السطور - البيضاء - السابقة .. هى كل ما خرجت به من جلساتى الأربع الأولى مع هذا الرجل . أما المقابلة الخامسة .. فكانت شيئاً آخر .

يقول الرجل : «العلم فى مجتمعنا أصيب بالصدأ . هذا الصدأ له سبب : إننا فقدنا اتصالنا بالتيار العلمى فى العالم . كأن العالم يسير أمامنا .. ونحن محلك سر . هناك سبب آخر : نحن لا نحترم تقاليد العلم . والعلم - يا أخى - كالتصوف . كالصلاة . هل تستطيع أن تصلى قبل أن تخلع حذاءك ؟ حسناً . نفس المسألة فى العلم» .

ويقول الرجل أيضاً : «إذا استمر التعليم بأسلوبه الحالى فى الجامعات ، فلا أتوقع علماء يظهرن فى الجيل الجديد . إن العلم هو أحد فروع المعرفة التى لا بد فيها من الوراثة . لا بد من مدارس علمية . إنها المفتاح إلى النهضة العلمية الصحيحة . والتقدم العلمى كالتجديف ضد التيار .. مالم تتقدم .. تتأخر . وعندما تختفى المدارس العلمية والتقاليد العلمية .. ينتحر العلم .

«لا أعتقد أن المشكلة الأساسية فى التخلف العلمى عندنا هى نقص الأموال . إنها طبعا مشكلة . ولكن الأهم منها اختفاء الأسلوب العلمى . اختفاء التقاليد العلمية . هل ترى مكتئب الضخم هذا؟ وهذه هى عقدة العلم عندنا . إنه يبحث عن الواجهة . عن الديكور .. قبل أن يبحث عن المضمون ..

• جريدة «أخبار اليوم» : ١٧/٢/١٩٦٨ .

«لاتقل عنى إننى عالم كبير . لا يا أخى . فكلما ازيد الإنسان علما اكتشف جهله. الله وحده هو العالم. والعلم الذى نمارسه مثل مياه البحر المالحة.. كلما شربت منها أكثر .. شعرت بالعطش أكثر ..

«أنا يا أخى تربييت تربية عادية جدا. فقيرة جدا. توفى والدى وعمرى تسع سنوات . ربانى أخى الأكبر الدكتور حسن . كان الأول على كلية الطب. تخرج فى الكلية وعمل طبيبا بالأرياف لينفق علينا. ربانى أخى صغيرا . وقد أصبح عمرى الآن خمسين سنة . ولكننى ما زلت حتى الآن أقبل يده كلما قابلته .. وأنا لا أتميز بشىء يا أخى عن باقى خلق الله. أنا أقول فقط مع رسول الله : أدبنى ربي فأحسن تأديبى».



ولكن .. مهلا .. مهلا ..

لقد تحدثنا إلى الرجل قبل أن نتعرف عليه . آسف . إن معظمنا قد لايعرف الرجل. هذه غلطتنا نحن وليست غلطته هو . فكل الدوائر العلمية فى العالم تعرفه . يعرفونه عالما ومحاضرا وأستاذا .

الرجل هو الدكتور أحمد مصطفى . عمره تسع وأربعون سنة ونصف سنة . وهو الآن مدير المركز القومى للبحوث بالقاهرة . كان سابقا (حتى ثلاثة أشهر فقط) رئيسا لقسم الكيمياء العضوية بكلية العلوم فى جامعة القاهرة.

والرجل له مؤلفات كثيرة . من بينها مثلا ثلاثة كتب علمية يجرى الآن تدريسها فى جامعات الولايات المتحدة واليابان وبريطانيا وألمانيا الغربية وفرنسا وتشيكوسلوفاكيا . والرجل فى جيبه الآن دعوات لإلقاء محاضرات علمية فى جامعات البرازيل والهند واليابان . وهو عندما يسافر إلى الولايات المتحدة مثلا (كما حدث فعلا فى شهر مايو الماضى) يطلبون منه إلقاء محاضرات علمية على كبار أساتذة الجامعات ومراكز البحوث هناك . والأجر الذى يصرفونه له هو ٢٥٠٠ دولار فى الشهر .

وعلى فكرة : هذا المبلغ يعادل مرتب شهر واحد لثلاثة وستين موظفا بالحكومة على الدرجة السابعة . أو يساوى مرتب تسعة شهور لرئيس مجلس الإدارة فى معظم شركات القطاع العام .

الرجل إذن عالم مشهور تعرف قدره كل جامعات العالم . ونحن الآن في طريقنا للتعرف عليه .



رجل مرح وجاد. شعره أسود سنجابي .. ولكنه بدأ فى السنوات الأخيرة ينسحب من مقدمة رأسه متراجعا إلى الخلف .صوته العالى نسبيا يجذب الانتباه، إنه صوت معبر بما يكفى لكى تنصت له. جسمه متين. طويل. وجهه ملىء بالزوايا الحادة القاطعة دليل على التصميم . عيناه حادثان كعينيى صقر موضوعتين خلف نظارة طبية . الكلمات تخرج من فمه سريعة متلاحقة ، تخلق لديك إحساسا بأن صاحبها يجيد الحديث. ولكن تعبيرات وجهه الحية تسير فى اتجاه عكسى . فهى تخلق لديك إحساسا بأنه يجيد الصمت. والواقع أن الرجل هو الاثنان معا. فهو كمعظم الصامتين .. تخرج الكلمات من فمه كأنما سبق تخزينها فى حصالة. وهو كمعظم المتحدثين المتمعين : تدخل الكلمات إلى أذنيه فتظل بداخلها كأنما دخلت بثرا من الصمغ .

والحديث معه عن العلم . والعلم له تعريفات كثيرة . أفلاطون مثلا كان يقول : العلم هو الإدراك الخارجى. ويقول سبنسر: العلم هو المعرفة المنظمة. ويقول برتراند راسل: عناصر العلم ثلاثة.. تفكير استطلاعى .. واستنتاج مبدئى.. ثم تجريب عملى .

أما الدكتور أحمد مصطفى فيقول: «فى العلم - كما فى الحياة - الغنى يزداد غنى .. والفقر يزداد فقرا. هذه مشكلة . فالذين بدأوا السباق متأخرين يواجهون كل يوم مشاكل للحاق بمن بدأ السباق مبكرا . والوصف الأول ينطبق على الدول النامية جميعا» .

قلت : تتكلم عن الدول النامية . ما أسباب تخلفها العلمى فى رأيك ؟

والرجل يجيب : أولا .. الأولويات. فالدول النامية تحارب التخلف العلمى على جبهات طويلة متعددة تتزايد كل يوم .إنها تريد كل شىء .. وفورا . وفى حربها على التخلف العلمى أمامها موارد محدودة ووقت ضيق . هذا يستدعى الإتفاق مقدما على أولويات للجبهات التى يتركز فيها البحث العلمى ، لأن توزيع البحث العلمى على جبهات كثيرة يشنت الموارد ويضعف النتائج المنتظرة.

«وهنا ينبغى أن نفرق بين نوعين من المشاكل . مشاكل رئيسية .. وهى التى تتطلب جهودا مركزة على المستوى القومى للدولة. ثم مشاكل الحياة اليومية ، التى تتمثل

فيما قابله كل مصنع مثلا من مشاكل . المشاكل الأخيرة تحتاج أيضا إلى بحث علمي ، وإلى حوافز تدفع المسؤولين عن المصانع لتنمية البحث العلمي .

«أما المشاكل الرئيسية فيجب أن تكون قليلة العدد ويتم اختيارها على أساس تقدير الأولويات . وما يزال تقدير أولويات المشاكل الرئيسية محل نقاش حتى الآن في بلد نام كبلدنا نحن مثلا . فنحن نختلف حول من أين نبدأ.. بالرغم من أننا بلد نام .

«نقطة أخرى : أن الهواة هم أول من يجنون على البحث العلمي . إن ترك البحث العلمي في يد الهواة هو عملية قتل له يرتكبها المجتمع .. وانتحار يرتكبه العلم . وليس في العالم عصا سحرية تجعل من رجل غير رجال العلم الحديث .. رجلا من رجاله أو متخصصا فيه . هذا يقودنا إلى نقطة أخرى . أنا أفضل أن نؤجل كلمة البحث العلمي ونتحدث أولا عن الأسلوب العلمي . إن كل مجتمع يحتاج أولا إلى الإيمان بالأسلوب العلمي قبل إيمانه بالبحث العلمي . فبالأسلوب العلمي نستطيع أن نوفر المناخ لإنجاب علماء على مستوى دولي» .



أه .. المستوى الدولي .

اننا - ومعنا كل الدول النامية تقريبا - فشلنا حتى الآن في أن نقدم إلى العالم .. علماء على مستوى دولي . أبرز مثل لذلك جائزة نوبل في العلوم مثلا . لقد قرأت كتابا صدر في الشهر الماضي يحلل شخصيات العلماء الذين حصلوا على جائزة نوبل في العلوم خلال السبعين سنة الماضية .

والكتاب يكشف عن ظاهرة خارقة تقول : إن متابعة تاريخ الحائزين على الجائزة تكشف عن وجود «شجرة أسرة» في العلوم يتفرع منها معظم الحائزين على جائزة نوبل . فهناك ١٧ عالما على الأقل من الحاصلين على الجائزة يرتبطون في النهاية بأستاذ واحد عاش منذ خمسة أجيال .. هو العالم الألماني الكيميائي فون بيير . ولو شملنا علماء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الذين كان يمكن أن يكسبوا الجائزة بالتأكيد لو كانت موجودة حينئذ .. فإن نفس شجرة الأسرة هذه يمكن أن تشمل تسعة أجيال من العلماء . إن هذه الأجيال التسعة تحكمها علاقة واحدة هي علاقة (الأستاذ / الطالب) . فكلها بدأت باستاذ

واحد ربي تلاميذ علماء .. ثم قام هذا الجيل بتربية جيل جديد .. وهكذا .. حتى الآن .
وكانت النتيجة ... انهم جميعا حصلوا على جائزة نوبل .



وأسال الآن الدكتور أحمد مصطفى : ما رأيك في هذا الكلام ؟

وهو يقول : صحيح مائة في المائة . إن الأستاذ البارز والتلميذ النابغة يميلان إلى اختيار بعضهما دائما . وظاهرة تسلسل الأجيال العلمية من بعضها البعض نجدها منتشرة بالذات في المدرسة العلمية الألمانية . ولو تابعت تاريخ العلماء الذين حصلوا على جائزة نوبل في العلوم فستلمس أن اتصالهم المبكر بالأساتذة البارزين كان له أكبر الأثر في مستواهم العلمي .

قلت : هل لمست هذه الظاهرة بنفسك أثناء تلمذتك على أيدي العلماء الألمان ؟

أجاب الرجل بحسم : نعم . ان أحد أساتذتي مثلا هو الكسندر شمبيرج ، أستاذ الكيمياء العضوية في جامعة برلين التكنولوجية . ان عمره الآن خمس وسبعون سنة . ومع ذلك فما زال يمر على تلامذته في الساعة السابعة صباحا كل يوم .. مهما بلغت برودة الجو .

قلت : هل تتميز المدرسة الألمانية في العلم عن غيرها ؟

أجاب : نعم . المدرسة الألمانية تؤمن بالتجربة أولا .. ومنها تستخرج الظواهر العلمية بعد ذلك . أما المدرسة الإنجليزية مثلا فهي تؤمن بالعكس .. تحدد الظواهر مقدما ثم تجربها عمليا بعد ذلك .

قلت : وما هو الطابع المشترك بين المدرستين ؟

قال : احترام التقاليد العلمية . فالعلم له تقاليد . هذه التقاليد لها طابع دولي . ولا يمكن أن تكون عالما بغير تقاليد . فالعلم نوع من التصوف . أو قل العلم كالصلاة . هل تستطيع أن تصلي قبل أن تخلع حذاءك مثلا؟ نفس المسألة في العلم .

قلت : من في رجال العلم في مصر يؤمنون بالتقاليد العلمية ؟

قال : عندك مثلان بارزان لذلك . الدكتور أحمد زكي ، والدكتور مصطفى مشرفه .
وما بعدهما نتيجة لهما .

قلت منتقلا إلى مجال جديد : هل هناك فردية في العلم ؟

أجاب الرجل : كان العلم فرديا فى البداية . ولكن الآن انتهى عصر المخترع الفرد . فالعلم اليوم أصبح متقدما ومتطورا إلى الدرجة التى أصبح يتطلب فيها عمرا كاملا لمجرد متابعة مايجرى . إننا الآن فى عصر الاختراع الجماعى . بمعنى أن العمل الجماعى أصبح الآن شرطا لتحقيق أى نتائج علمية هامة . وهذا التطور لم يتم على حساب الفرد . فالفرد له أهميته القصوى فى النمو العلمى . فالعلم لاينمو مثلا فى مجتمع من العبيد ، ولا ينمو مثلا فى مجتمع من الهواة .



.. والكلام معقول .

أن الفن هو «أنا» . أما العلم فهو «نحن» . فالفن شخصى ، بينما العلم موضوعى . الفن فردى ، بينما العلم جماعى . الكلام معقول إذن .. والتحفظات عليه معقولة أيضا . فلو أن مائة من الرجال - مائة فقط - كانوا قد قتلوا فى طفولتهم منذ مائتين وخمسين سنة .. لما كنا نعيش اليوم فى هذا العصر الذى نعيش فيه الآن . فبغير هؤلاء .. كنا سنعيش اليوم بغير سيارات نركبها ولا طائرات نحلق بها ولا تليفونات نتكلم فيها ولا كهرباء نستضىء بها ولا تليفزيونات نشاهدها ولا أفلام نسجلها و .. لاصحف نقرأها . والصفة الوحيدة التى يحملها هؤلاء الرجال هى أنهم : علماء . وتحت هذه الكلمة مائة خط .. وخط .

فنحن الآن فى عصر العلم . وقد وصلت إلينا هذه الأشياء بعد طريق شاق افتتحه رجال العلم منذ حوالى ٣٠٠ سنة . فالعلم ، كما يقول برتراند راسل : «لم يصبح العلم قوة هامة إلا منذ جاليليو» . ولم يصبح العلم عنصرا هاما فى تحديد شكل الحياة اليومية للناس عامة إلا فى أثناء المائة وخمسين سنة الأخيرة . لقد حدثت فى تلك الفترة القصيرة تغييرات عظيمة لم يحدث مثلها منذ أيام المصريين القدماء . ان مائة سنة من العلم كان لها تأثير ضخم عجزت عنه خمسة آلاف سنة من ثقافة ما قبل العلم . وسوف يستمر العلم لفترة طويلة قادمة هو المقياس الحديث للحضارة والتقدم . ولذلك فنحن الآن فى محاولة لفهم العلم .. بعد أن عجز العلم عن فهمنا .

أقول للدكتور أحمد مصطفى : هل من الصدفة مثلا أن نجد أن أكثر من نالوا جائزة نوبل فى الكيمياء كانوا من الألمان ؟ وأن ألمانيا هى التى سبقت العالم إلى إنتاج البترول من الفحم ، والمطاط الصناعى ؟

والرجل يجيب : لا .. ليس هذا الأمر صدفة . فالعلم لا ينمو بالمصادفات . الأمر ببساطة له سببان . أولهما أن الأسلوب الألماني يؤمن جدا بضرورة المدارس العلمية . وكل أستاذ عظيم هناك له مجموعة من التلاميذ يكونون مدرسة له . وهذا الطريق هو المفتاح الحقيقي لأي نهضة علمية . أما السبب الثاني فهو الجامعات الألمانية . ففي العهد الذهبي الألماني - هو الممتد بين سنتي ١٨٥٠ و ١٩٣٣ - كانت المنافسة العلمية قائمة في ألمانيا بين أكثر من عشر جامعات ألمانية . وهذا هو السبب الأول والأهم للنهضة العلمية في أي مجتمع .

قلت : وصلنا للمهم .. لماذا أصبحت الجامعات عندنا برجا عاجيا كما يقولون ؟

أجاب الرجل بحدّة : أه .. أنت إذن تسمى الجامعات عندنا أبراجا عاجية ؟

قلت : لست أنا على أي حال مخترع هذه التسمية . ومع ذلك فلسنا هنا بصدد متابعة الأصل التاريخي للكلمة ..

قال أحمد مصطفى : مهما يكن .. أنا يا أخي كنت حتى ثلاثة أشهر سابقة أستاذًا بالجامعة . فلتكن الجامعة برجا عاجيا . والخطأ يا أخي ليس في الجامعات . هناك دائما نوع من المعاهد العلمية يكون حلقة الإتصال بين الجامعات ومشاكل المجتمع اليومية . هذه المعاهد هي التي «تترجم» البحوث العلمية الأكاديمية إلى واقع يجرى تطبيقه . ولقد فقدت الجامعات عندنا الكثير من رجالها لانتقالهم إلى العمل في مجالات الصناعة . كان هذا ضروريا بالطبع ، ولكننا وجدنا أنه بعد فترة أصبحت لدينا لغتان . لغة الذين انتقلوا إلى التطبيق وآمنوا بعد خمس سنوات أو أكثر بأن هناك مشاكل في حاجة إلى الأسلوب العلمي . ولغة الذين لم يلمسوا هذه المشاكل لبعدهم الفعلي والجغرافي عن موقع الإنتاج ، وانخراطهم في مشاكل التعليم الجامعي وتطويره وممارستهم البحوث الأساسية . وعلى أي حال فأنا مؤمن بأن رسالة الجامعة في البلاد النامية هي العلم للمجتمع .

قلت : ماهو الأهم في نظرك .. الحصول على الدكتوراه أم النجاح في بحث علمي

تطبيقي ؟

قال : الدكتوراه هي الأخرى خطوة في البحث التطبيقي .

قلت : مازال السؤال مطروحا .. أيهما أهم .. الدكتوراه أم البحث العلمي ؟

أجاب الدكتور أحمد مصطفى : شوف .. الدرجات العلمية - كالدكتوراه - هي

دليل رسمي بوجود قدر معين من المعرفة لدى الشخص ، ولكنها ليست الدليل الوحيد .

فى الجامعات الإنجليزية مثلا هناك مجموعة كبيرة من الأساتذة لا يحملون أكثر من..
البكالوريوس .. ومع ذلك فهم أعضاء فى الجمعية الملكية للعلوم هناك .

قلت : ماذا ينقص جامعاتنا فى رأيك ؟

أجاب : كثير .. لكن أهمها فى رأيى هو اختفاء التقاليد الجامعية .

قلت : لو استمر التعليم الجامعى عندنا بأسلوبه الحالى .. فهل تتوقع وجود علماء
نابغين فى الجيل الجديد ؟

قال : لا أعتقد. ولكن هذا الأمر يمكن تداركه فى المدى القصير بأسلوب واحد .. التركيز
على الإهتمام بالدراسات العليا. إنها مقياس صالح لكفاءة الخطوة السابقة عليها وهى دراسة
البكالوريوس. وهذا أيضا علاج مؤقت .

□□□

ونستريح قليلا ..

فلا أعتقد أننا تعرفنا تماما إلى الرجل الذى نجلس معه . وهناك تفاصيل كثيرة لايسمح
لنفسه بأن يرددها. هناك مثلا الولاء الشديد من هذا الرجل للعلم. وهو يصمم وقته اليومى
ليساعده فى تحقيق هذه المهمة . إنه يستيقظ يوميا فى الخامسة والنصف صباحا. صلاة
الفجر. ثم قراءات وأبحاث علمية . الإفطار فى السابعة . عودة إلى القراءة حتى التاسعة .
من التاسعة إلى الرابعة عصرا عمل . سابقا فى الجامعة والآن فى مركز البحوث . الغداء
فى الخامسة. جلسات علمية فى منزله مع طلبة من الخامسة عصرا حتى التاسعة مساء.
ثم النوم. وفى اليوم التالى تبدأ الدائرة من جديد .

والرجل حصل على جائزة الدولة مرتين . فى المرة الأولى (سنة ١٩٤٨) طلب تحويل
الجائزة إلى بعثة سفر فى الخارج. المرة الثانية فى سنة ١٩٥٢. الجائزتان كانتا فى
الكيمياء العضوية التى تخصص فيها . مرة ثالثة حصل على جائزة فولبرايت من أمريكا
سنة ١٩٥٥ . قبلها بسنة دعتة اليونيسكو لإلقاء محاضرات فى جامعة اسطنبول بتركيا
والجامعة الأمريكية فى بيروت. بعدها حتى الآن دعى لإلقاء محاضرات فى جامعات
الولايات المتحدة وألمانيا والمجر والهند. ودعى لمؤتمرات علمية فى الإتحاد السوفيتى
وتشيكوسلوفاكيا وكندا . إن الأسماء كثيرة فلا داعى للحصر .

والدكتور أحمد مصطفى لم يتزوج إلا في سنة ١٩٥٠ بعد أن أصبح عمره ٣٢ سنة. زوجته هي الدكتورة وفيه عسكر وهي الآن أستاذة للكيمياء بكلية علوم جامعة القاهرة. إنها نفس تخصصه العلمى . السبب فى رأيه هو أن «الحياة الزوجية يجب أن تكون أيضا حياة منتجة هادفة». وله الآن بنت واحدة فى مرحلة تعادل المرحلة الإعدادية . انه لايساعدها فى المذاكرة ولكن «.. والدتها تساعدها أحيانا» . هو نفسه كان يعتمد على نفسه فى المذاكرة.. فلا دروس خصوصية ولا وساطات دراسية . آه .. نسيت : انه لا يؤمن بالوساطة أبدا ولم يقبل الوساطة من أحد مطلقا .

والرجل أعصابه هادئة . لا يثور إلا نادرا. خذ هذه الطريقة السهلة لإثارته : حاول أن تمس كرامة أستاذ جامعى زميل له . حاول أيضا أن تعرف منه قصة الذين كان له عليهم فضل علمى ثم طعنوه فى ظهره. أستطيع أن أعطيك أمثلة .. فهذا النوع منتشر بكثرة فى هذه الأيام. ولكن لاداعى لأن الرجل يقول «.. الله خير حافظ» حتى من الانتهازيين والوصوليين .

والرجل بعد ذلك له مدرسة علمية فى مصر. لقد نال ١٦٠ دارسا على يديه شهادات الماجستير والدكتوراه.

وأسأله الآن : ألا تندم على الوقت الذى قضيته مع تلاميذك؟

وهو يرد : مطلقا .. كيف أندم على ما أستمتع به؟

قلت له : لاتحاول أن تسألنى .. فسؤالى يتمشى مع الموضة هذه الأيام. ولكن .. دعنى

أغير السؤال.. لماذا لم تسع إلى أى منصب رسمى طوال حياتك ؟

قال الرجل ضاحكا : يسعدنى أننى بقيت دائما أستاذا جامعيًا. ان خلفى ٣٢ سنة من

البحث العلمى . ولو بهرتنى المناصب – وكثيرا ما كان هذا ممكنا – فإننى لم أكن سأصبح الآن كما أنا: أحمد مصطفى .

قلت : ما الذى خرجت به من الـ ٣٢ سنة فى البحث العلمى ؟

قال : خرجت بشيء واحد.. وما أوتيتم من العلم إلا قليلا .

سألته : فقط ؟

قال : خرجت بشيء آخر .. علم الإنسان مالم يعلم .

قلت : إن كلامك (كالجمل السابقة) وتصرفاتك (كالحرص على صلاة الفجر حاضرا
وصلاة الجمعة في مسجد الحسين) توحى بأنك متدين . هل العلم يؤمن بالله ؟
أجاب الرجل بوجه تغطيه الدهشة : طبعا يا أخی . إن العلم إذا درسناه بتعمق كاف ..
لوجدناه يثبت وجود الله ..

قلت : من هو العالم في رأيك ؟

قال : العالم هو الله ..

قلت : طيب .. من هو رجل العلم ؟

أجاب : هو الشخص الذى .. كلما ازداد علما اكتشف جهله ..

سألته : ما أهم صفة تحرص عليها ؟

أجاب : التواضع العلمى بين طلبتى .. والاحترام المطلق لأساتذتى .

قلت : ما الذى تأخذه مقياسا لعملك ؟

قال : رأى طلبتى فى . فتلميذى هو مقياس نجاحى . وأنا أحس بأننى كبرت حجما
كلما زاد تلميذى علما .

قلت : ما سبب نجاحك ؟

قال : أدبى ربى .. فأحسن تأديبى .

قلت : متى تشعر بالسعادة ؟

أجاب : عندما أصلى .



عودة إلى الجامعات . ولا أدرى سببا لهذه العودة سوى ما يقوله لنا التاريخ . فالتاريخ
يقول لنا إن العلم الحديث بدأ فى الجامعات الإيطالية فى القرن الحادى عشر .. وظل
منتعشا هناك إلى منتصف القرن السابع عشر . وازدهار العلم فى ألمانيا بدأ بنفس الطريقة :
بدأ فى الجامعات الألمانية فى القرن التاسع عشر .

هذا عن التاريخ القديم نسبيا . أما فى التاريخ الحديث جدا فأمامنا دراسة أعدتها باحثة
أمريكية تقول فيها إن أكثر من نصف الذين حصلوا على أرقى الشهادات العلمية فى أمريكا ..

تخرجوا في أربع جامعات بالذات هي : هارفارد - كولومبيا - بيركلي - برنستون .
ومعظم الذين حصلوا على جائزة نوبل من أمريكا في العلوم يعملون في الجامعات ، بينما
في بريطانيا هناك ١٢ من كل عشرين يعملون في الجامعات . هذه نقطة .

• نقطة أخرى نستخرجها من المناقشات الحامية التي دارت في بريطانيا منذ ثلاثة أشهر
بصدد السياسة العلمية هناك . لقد سيطر على المناقشة سؤال رئيسي : أيهما أفضل ..
توزيع الموارد المالية الإضافية على كل الجامعات بالتساوي .. أم تركيزها في عدد قليل من
الجامعات تكون بمثابة مراكز للتفوق العلمي ؟ إن تاريخ الحاصلين على جائزة نوبل يثبت
أن تركيز الموارد لخلق مراكز تفوق علمي هو الحل الفعال في البحث العلمي .

وأسال الآن الدكتور أحمد مصطفى : أيهما أفضل في رأيك بالنسبة لنا .. توزيع مواردنا
المحدودة على كل الجامعات بالتساوي .. أم تفضيل جامعة أو جامعتين بالذات لتكونا
مراكز للتفوق العلمي ؟

ويرد الرجل : إن الحل في رأيي هو أن تكون عندنا ميزانية بحوث ، وليست ميزانية
جامعات أو مبان أو أشخاص . هذا هو الحل الفعال .

قلت : أنت تعمل الآن مديرا للمركز القومي للبحوث . لن أسألك عنه ، فمازلت حديثا
فيه . لكنني أسألك .. ما أهم ما يملكه هذا المركز ؟

أجاب الرجل بحسم : الإنسان .. الإنسان عندى هنا هو أغلى ما أملكه في هذا
المركز .

قلت : هل تعتقد أنك تستطيع أن تفعل شيئا في هذا المركز ؟

أجاب : لست أنا الذي أستطيع . انهم ١٥٠٠ انسان في هذا المركز هم الذين يستطيعون
أن يفعلوا الكثير .

قلت : حسنا : كلمني عن المركز إذن ..

قال ضاحكا : أعتذر . لا أستطيع أن أحدثك عن المركز الآن .

سألته : إذن .. متى تستطيع ؟

أجاب : عندما نعمل شيئا يستحق الحديث .

ومرت لحظة صمت. ثم ضغط الرجل على جرس بجانبه قائلاً لى .. ايه رأيك .. تشرب قهوة ؟

قلت له جامعا أوراقى : لقد شربت فعلا ..

سألنى : متى ؟

أجبتة : شربت هذا الحوار . إنه قهوتى هذا الصباح .



و ... لقد قلت فى بداية هذا المقال إننى لم أخرج بشيء من مقابلاتى الأربع الأولى مع هذا الرجل. فى الواقع أنا أراه منذ شهرين وبالفعل لم أكتب شيئاً. ولكن .. أليس العلم هكذا : يحتاج إلى صبر طويل قبل أن يعطينا نتائج مشجعة ؟

لقد قلب العلم حياتنا رأساً على عقب . مثلاً .. النجوم التى نشاهدها اليوم فى السماء ليلاً . إنها نفس ما كان يشاهده الفلاح المصرى فى السماء منذ ألفى سنة . لكن السماء لم تعد هى نفسها مطلقاً. الآن أصبحنا نعرف النجوم فى السماء أكثر وأكثر وأكثر . أصبحنا أيضاً نجهل عنها أقل وأقل وأقل . والسبب فى كل ذلك : رجال العلم .

ونحن نعلم أنه من بين كل مائة عالم عرفتهم البشرية طوال تاريخها .. هناك ٩٥ عالماً يعيشون فى عالمنا المعاصر الآن . فالعلم الحديث كان متأخراً فى وصوله .. مبكراً فى إظهار نتائجه .

وفى مصر .. نحن نبذل جهداً خارقاً للحاق بعصر العلم . للحاق بالقرن العشرين .

و ...

الوحيد الذى يستطيع أن ينجز لنا هذه المهمة هو : رجل العلم . إنه مندوبنا فى القرن الحادى والعشرين .

رجل .. خزعة المستقبل



لا تستطيع مصر أن تقدم استقالتهما من القرن العشرين . استقالة مرفوضة . (مع أننا فعلنا ذلك أحيانا بحسن نية) !
وما دام الأمر كذلك .. فإن المشكلة الملحة جدا هي أن نبنى في مصر مجتمعا علميا . هذا شرط مبدئي لا نستطيع قبله أن نتفاهم مع عصرنا .
إلى هنا سنجد أنفسنا متفقين تماما على هذه الحقيقة .. شعار آخر من بين الشعارات .
ثم يبرز سؤال : هل نحن مستعدون لدفع الثمن - ثمن إيماننا بالعلم أسلوبا لتفكيرنا وقيدا على تصرفاتنا ؟
هنا بالضبط - بالضبط - نبدأ في الاختلاف .

العلم يتطلب أولا موهبة الشك . ونحن نحتفظ في مجتمعنا بمجموعة ضخمة من المقدسات والمسلمات والحقائق المطلقة المعفاة من النقد والمراجعة . والعلم يتطلب ألا نترك حياتنا للصدف والطوارئ .. في حين أن مشكلتنا مع المستقبل هي أنه يصل عادة قبل أن نستعد له .
ونحن نجامل الفقر والمساواة كثيرا على حساب الكفاية ، بينما العلم يرفض أن يعطي للجائع سمكة . إنه يعلمه كيف يصطاد سمكة .
ونحن نربي أجيالنا الجديدة على الإيمان تماما - وجدا - بالأمر الواقع .. بينما العلم يبحث دائما عن المجهول . عن المستقبل .

وحيثما تنمو بيننا فكرة جديدة .. فليس هذا لأننا شجعناها مقدما .. بل لأننا تنبهنا إلى قتلها بعد فوات الأوان . المسألة حظ وصدفة . تماما كالأسطورة الإغريقية القديمة التي

• جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٦٨/٩/٧ .

تحكى عن ثلاثة أمراء كانوا أثناء رحلاتهم المستمرة يكتشفون - بالعقل أو بالصدفة - كل الأشياء التى لم يبحثوا عنها أصلا . المسألة - باختصار - هى وصاية يفرضها حاضرنا على مستقبلنا . وتكون النتيجة : الحاضر يصاب بفقر الدم ، والمستقبل يموت بموافقة الأغلبية .

فى مثل هذا المناخ - آسف - فى مثل هذا الجو القاتل مقدما للأفكار الجديدة .. لا يكون المجتمع وحده هو الخاسر ، بل الخسارة تمتد أحيانا لتشمل الإنسانية بأسرها . إن أوضح وأضح مثال فى التاريخ على ذلك هو اكتشاف الطاقة الذرية . لقد اكتشف أحد العلماء - عالم إيطالى - سر الطاقة الذرية قبل اكتشافها فعلا بخمس سنوات . حدث ذلك فى شهر مايو سنة ١٩٣٤ . ولكنه لم يجرؤ على إعلان اكتشافه . بل إنه - هو الآخر - لم يتنبه لما رآه .. بسبب سيطرة النظريات العلمية السائدة فى ذلك الوقت ، وكلها تقول إنه من المستحيل انشطار ذرة اليورانيوم .. وهو الذى جعل صنع القنبلة الذرية ممكنا .. وهو أيضا الذى فتح أمام الإنسانية أوسع أبواب تقدمها : الطاقة الذرية .



وأسأل الآن الدكتور محمد عبد المقصود النادى ، رئيس قسم الطبيعة النووية بكلية علوم جامعة القاهرة : ما هى - أصلا - الطاقة الذرية ؟

ويرد الرجل : « عندك الشمس مثلا .. حولها مجموعة من الكواكب نسميها علميا المجموعة الشمسية . هناك جسم فى الوسط - كالشمس - هو النواة . وثمة مجموعة تدور حولها - كالكواكب - هى الإلكترونات . إن النواة هى التى تضم الطاقة الذرية . والذرة هى جزء صغير جدا لا يمكن رؤيته بالعين المجردة . وهناك ميكروسكوب البيكترونى يكبر الأشياء مائة ألف مرة . ومع ذلك فإن قوة تكبير الميكروسكوب لاتكفى لرؤية الذرة . الطريقة الوحيدة لرؤيتها تكون بميكروسكوب يكبر الأشياء مليون مرة . إن هذه النواة (الذرة) عندما تصطم بنواة أخرى سريعة الحركة ، تتولد منها طاقة كبيرة جدا تنطلق كالديناميت . هذه الطاقة هى الطاقة الذرية .. التى يمكن بعد ذلك استخدامها حربيا أو سلميا » .

قلت : لماذا اخترت أنت هذا التخصص الصعب ؟

أجاب الرجل (وهو الثانى فى الشرق الأوسط الذى يتخصص فى الطبيعة الذرية بعد المرحوم الدكتور مصطفى مشرفه) : «الحقيقة هى أننى عندما كنت طالبا فى المرحلة الثانوية كنت كثيرا ما أقرأ قراءات حرة . كنت أقرأ الصحف والمجلات وكتب الأدب . وكانت هناك مجلة شهرية وقتها اسمها (المقتطف) .. كانت تنشر مقالات علمية مترجمة ، تمتاز بالبساطة والسهولة . استهوتنى كثيرا تلك المقالات ، خصوصا ما كان منها يتناول نظرية النسبية والطاقة الذرية . وبمرور الوقت اكتشفت أنه قد تولد عندى شغف شديد بالموضوعات العلمية عموما ، وبموضوعات الطاقة الذرية بصفة خاصة . آه .. هناك مسألة أخرى . لقد كانت وزارة المعارف العمومية تجرى مسابقات سنوية فى القراءات الصيفية لطلبة المدارس . وكنت أجد لذة كبيرة فى الكتب العلمية التى تضمها تلك المسابقات .. ثم النجاح فى المسابقات نفسها . وبالطبع كنت أجد نفسى شغوفاً أكثر بقراءة الكتب العلمية المبسطة . هذه هى بدايتى الأولى . بداية متواضعة كما ترى» .



.. ولكننى لا أراها بداية متواضعة كما يقول الدكتور النادى . إننى أراها فقط بداية مبكرة . والحقيقة هى أننا لو درسنا تاريخ كبار العلماء فى العالم .. لوجدنا أن معظمهم بدأ حياته باهتمام متواضع جدا بالموضوعات والأفكار العلمية المبسطة . مثلا : عالم الذرة الألماني شيزنبيرج كتب عن نفسه ذات مرة قائلا : «لاحظت فى نفسى اهتماما بالقراءات العلمية المبسطة منذ سن التاسعة . وفى سن الحادية عشرة أهدانى أخى الأكبر لعبة صغيرة تمتاز بأنها تحتاج إلى مجهود عقلى بسيط لممارستها . وكنت أجد لذة كبرى فى ممارسة تلك اللعبة . ثم بدأت أبحث عن لعبة أخرى تحتاج إلى مجهود عقلى أكبر . ثم أكبر .. فأكبر . إلى أن وجدتتها .. الطاقة الذرية» .



وأسأل الآن الدكتور محمد عبد المقصود النادى . رجل فى الخمسين من عمره وعدة أشهر . أشيب الشعر ، اسمر الوجه . متردد الكلمات . متوتر الحركات . منتظم التفكير . سهل الحديث . طويل القامة . يحيط الجزء الأمامى من وجهه بحزام أسود اللون يحمل دائرتين شفافيتين فى الوسط . حزام يرتكز على الجزء العلوى من أنفه . إنه : نظارته الطبية .

أقول : بعد أن تابعت معك بدايتك العلمية المبكرة .. أستطيع الآن أن أتابع خطواتك العلمية التالية . أنت التحقت بكلية العلوم لتحقيق أمنية صباك . ثم تخرجت فيها فى سنة ١٩٤٠ فى تخصص الطبيعة بتقدير الامتياز مع مرتبة الشرف الأولى . ثم أنت تابعت دراستك فحصلت على الماجستير فى الطبيعة فى سنة ١٩٤٥ . بعدها بعثة إلى بريطانيا لدراسة الطبيعة الذرية .. حتى حصلت على الدكتوراه فيها من جامعة لندن فى سنة ١٩٤٨ ، فمدرسا بكلية العلوم بجامعة القاهرة عدة سنوات ثم أستاذا مساعدا ، فأستاذا ، فرييسا لقسم الطبيعة النووية . إلى هنا أستطيع أن أقول إنك واحد ضمن ١٢٠٠ أستاذ تضمهم جامعاتنا .. فهل هذه البيانات دقيقة ؟

- نعم .

قلت : ولكنك فى الواقع سرعان ما أثبت أنك رجل غير عادى . فأنت حصلت على الدكتوراة مرة ثانية هذا العام فى الطبيعة النووية . قبلها حصلت على جائزة الدولة التشجيعية ثلاث مرات منذ سنة ١٩٥٣ . وأثناء تلك الفترة فأنت عملت أستاذا بجامعة «بييل» الأمريكية لمدة سنة . ثم أصبحت لك سمعة دولية متميزة ، بحيث أصبحت بحوثك العلمية تنشر فى أكبر المجالات العلمية الدولية . ووجهت إليك الدعوات لإلقاء محاضرات عن أبحاثك فى الإتحاد السوفييتى وبريطانيا وألمانيا الغربية وعدة دول أخرى لا أتذكرها الآن . هل هذا صحيح ؟ حسنا . هنا بالضبط أريد أن أسألك : هل تعتقد أننا وصلنا إلى المستوى الدولى فى بحوث الطبيعة الذرية ؟

أجاب الرجل بعد لحظات من التفكير : «أعتقد أننا أصبنا شيئا من النجاح فى بعض موضوعات الطاقة الذرية .. مثل موضوع التفاعلات النووية . فالواقع ان الطبيعة النووية موضوع واسع ومتطور ، وبالرغم من ذلك فإن لنا أبحاثا دولية فى موضوعات محددة . أبحاثا نشرت فى المجالات العلمية الدولية ونالت الكثير من التقدير» .

قلت : أشكرك على هذا التوضيح . بقيت لدى نقطة أخرى أريد استيضاحها قبل أن نتعمق فى المناقشة . ألا يعتبر إسرافا من الدول النامية - ونحن من بينها - أن تنفق من مواردها المحدودة على بحوث الطبيعة الذرية ؟ إنه تخصص علمى هام ، هذا صحيح ، ولكنه مكلف جدا ومعقد للغاية .. بما لايسمح للدول النامية - هكذا يقول البعض - بأن تحقق فيه نتائج ملموسة .. فما رأيك ؟

أجاب الرجل : «أما عن ارتفاع تكاليف بحوث الطاقة الذرية .. فهذا صحيح . إنها فرع من العلوم باهظ التكاليف . وفيما عدا أمريكا والإتحاد السوفييتي .. فلا توجد دولة تستطيع أن تتحمل وحدها تكاليف البحوث المتعددة في كل ميادين الطاقة الذرية . .

«.. هي بحوث باهظة التكاليف . هذا صحيح . ولكن الطاقة الذرية هي المستقبل . وهي ضرورية وأساسية للدول النامية بأكثر مما تتصور . ولا يمكن لدولة نامية أن تفاضل بين المشاكل العاجلة وبين مشكلة تطوير بحوثها النووية . فالطاقة الذرية هي أيضا مشكلة عاجلة . لكن على الدولة النامية أن تتخصص . أن تختار . فهي تستطيع أن تختار مجالا معيناً من مجالات البحوث النووية وتركز أبحاثها ومواردها فيه . إن الدولة التي تفعل ذلك تستطيع بعد فترة قصيرة أن تحقق نتائج كبيرة تستفيد هي منها بشكل أساسي ، ثم يستفيد العالم كله» .

قلت : أنت ذكرت منذ لحظة أن بحوث الطاقة الذرية هي الأخرى مشكلة عاجلة بالنسبة للدول النامية . هل تستطيع أن تذكر لي أمثلة لنوع المشاكل التي تستطيع الدول النامية أن تحلها بواسطة الطاقة الذرية ؟

أجاب الرجل فوراً : «نعم . خذ عندك مثلاً استخدام الإشعاعات الذرية في إبادة الحشرات . هذا موضوع له أهميته الاقتصادية بالنسبة لدولة كمصر . فلو كان هذا من بين المجالات التي ركزنا فيها جهودنا وخبرتنا فإن التوصل إلى حل نهائي لمشكلة دودة القطن سيصبح أمراً مؤكداً خلال سنوات قليلة قادمة . مشكلة أخرى : تحويل مياه البحر إلى مياه عذبة . إن استخدام الطاقة الذرية في هذا المجال هو الحل الوحيد في المدى الطويل - بل حتى القصير - لمشكلة الطعام والسكان في مصر . تصور أنت ماذا يمكن أن يكون الحال لو ركزنا جهودنا وخبرتنا وبعثاتنا ونشاطنا العلمي - طبيعة وكيمياء وغيرهما - في التوصل إلى طريقة اقتصادية لتحويل مياه البحر إلى مياه عذبة نروي بها أراضي الصحراء الشاسعة ببلدنا ..

«باختصار أقول لك : مع أن الدول النامية هي الأكثر فقراً بين دول العالم .. إلا أنها هي الأكثر حاجة لبحوث الطاقة الذرية . هذه هي المعادلة الصعبة - بل الصعبة جداً - التي يجب أن نتوصل إلى حل لها» .



كلمات خطيرة؟ لا .. بل أكثر . إن هذه الكلمات التي يقولها الدكتور النادى هي إنذار . والمجتمعات لا تتقدم إلا بواسطة الذين يملكون هذا الفن : فن إنذار المجتمع فى الوقت المناسب .

أن هـ . ج . ويلز له كتاب اسمه (النائم يستيقظ) . وفى الكتاب يخبرنا عن رجل نام مائة سنة . ثم استيقظ ليجد حوله عالما مختلفا جدا عما عرفه من قبل . والدولة النامية سوف تصبح هذا الرجل إذا اختارت لنفسها تأجيل الإهتمام ببحوث الطاقة الذرية .. لأنها فى هذه الحالة تؤجل مستقبلا لا يقبل التأجيل .

وهذا المعنى هو ما يحاول أن يؤكد الدكتور النادى . والواقع ان كلمات الرجل تتمشى مع الإهتمام الذى يعطيه فى حياته الشخصية لموضوعات الطاقة الذرية . أنه يملك فى بيته أكبر وأحدث مكتبة فى الشرق الأوسط - أكرر : فى الشرق الأوسط - لكتب ومجلات الطاقة الذرية . مكتبة رائعة . والرجل يعطى وقته كله لعلمه . لا مسرح . لاسينما . لا تليفزيون . لا سهرات . لا تدخين . الاستيقاظ فى السادسة صباحا . النوم خمس ساعات . الباقي قراءة .. قراءة .. قراءة . إنه يقرأ المستقبل . لا .. بل يخترع المستقبل . هذا موقف كل رجل علم فى مصر يعمل الآن فى بحوث الطاقة الذرية .

والرجل يعطى حياته لحساب مستقبلنا . بل حتى معنى السعادة بالنسبة له هو : «أكون سعيدا جدا عندما أسمع عن تقدير دولى لأحد بحوثنا فى الطاقة الذرية» . أنه يعطينا حياته إذن .. ويعطينا أولاده أيضا . إن لديه أربعة .. ثلاثة أولاد .. و بنت . أصغرهم منقول إلى السنة الأولى ثانوى . أكبرهم فى بعثة الآن فى أمريكا . البنت طالبة فى كلية الصيدلة .

وكل ما يتمناه الرجل لأولاده هو أن : «يواصل واحد منهم ما بدأته أنا .. حتى يحقق ما لم أحققه أنا» . ومع رغبته الملحة هذه فى أن يواصلوا هم ما بدأه هو .. إلا أنه لم يتدخل فى حياتهم الشخصية كثيرا . مجرد نصيحة . لا . مجرد رأى .. فلا أحد يقبل بالنصيحة من أحد فى هذه الأيام !



.. ونعود إلى الذرة .

أقول للدكتور محمد عبد المقصود النادى : كم دولة نووية فى العالم الآن ؟

وهو يرد : خمس .. الولايات المتحدة .. الإتحاد السوفيتي .. بريطانيا .. فرنسا .. الصين .

- متى تصيح الدولة .. دولة نووية ؟

- عندما تستطيع أن تصنع الوقود الذرى وتحلله وتستخرج منه العناصر المختلفة .. ثم تعيد تحويلها مرة أخرى .. .

- إذن .. ألا يعد وجود المفاعلات النووية فى دولة ما مقياسا لوصفها بالدولة النووية ؟

- لاطبعا . شراء مفاعل نووى مسألة سهلة .. تماما كسواء آلات مصنع . إنه ليس دليلا فى حد ذاته على أن الدولة صناعية . ولكن الدولة تصيح دولة صناعية عندما تتمكن من صناعة آلات المصانع نفسها .. وهكذا فى الذرة . وجود المفاعل النووى هو خطوة أولى . لكنه ليس فى حد ذاته دليلا على أن الدولة ذرية .

- وهل هناك دول كثيرة لديها مفاعلات نووية فى العالم الآن ؟

- نعم . كثير . إن أصغر الدول تتنافس الآن فى الحصول على مفاعلات نووية .



منافسة طيبة .

فالواقع أن الطاقة الذرية التى أصبحت تحظى الآن بمثل هذا الإهتمام من الدول المختلفة .. قد بدأت بداية متواضعة جدا ، ومنذ سنوات قليلة جدا .

لقد كانت البداية هى تلك البداية المتواضعة التى قام بها العالم الإيطالى انريكو فيرمى

(١٩٥٤/١٩٠١) . لقد أجرى فى مايو ١٩٣٤ أول تجربة حقق بها انشطار ذرات اليورانيوم .

ولكنه لم يتنبه لما رآه لأن النظريات العلمية السائدة وقتها كانت - كما ذكرت من قبل -

تقول إن من المستحيل انشطار الذرة . إن هذا العالم الإيطالى كوفىء قبل وفاته باعتباره (..

الرائد الذى كان أول انسان فى العالم كله يحقق تفاعلا ذريا) . ولكن تلك المكافأة جاءت

بعد سنوات طويلة - طويلة - من تجربته الأولى فى سنة ١٩٣٤ . وكان من الممكن - بفضل

تلك التجربة - أن يتم اكتشاف الطاقة الذرية قبل اكتشافها فعلا بخمس سنوات . ولكن

هذا الاكتشاف كان جديدا وقتها إلى درجة لم تجعل أحدا يؤمن به .

والواقع أن المسألة هي - كما يقول اللورد ريتش كالدر ، الصحفي العلمي الإنجليزي المشهور : «ان الثورات العلمية تحدث فقط حينما يستطيع الرجال العظماء أن يحرروا أنفسهم من القوالب السائدة للتفكير» . صحيح . فالأجيال تولد من بعضها البعض . وحينما يحاول جيل ما أن يفرض وصايته على الجيل التالي له فإن المجتمع يصاب بأفدح الخسائر .

وأنا الآن أسأل الدكتور النادى : من - من الجيل السابق - تتلمذت أنت عليه ؟ ويرد الرجل بثقة : «ان أستاذى فعلا كان المرحوم الدكتور على مصطفى مشرفه . لقد درس لى مبادئ الطبيعة النووية فى السنة الرابعة بكلية العلوم . انه أول من حصل على الدكتوراه فى الطبيعة الذرية النظرية .. وأنا أول واحد بعده . لقد تعلمت من هذا الرجل أشياء كثيرة غير مجرد علمه الواسع . وتعلمت أيضا من أستاذ ثان لى هو المرحوم الدكتور محمد فهمى . لقد كانا مثاليين حقيقيين للأستاذ الجامعى» .

قلت مقاطعا : بالمناسبة .. ماهى طبيعة نظرتك لنظام التعليم المصرى الحالى ؟ قال الرجل : «الطالب المصرى عنده استعداد ضخم للبحث والدراسة . لكن ، للأسف ، هو لا يجد التوجيه السليم لمواهبه بعد الثانوى ، ولا الفرصة العلمية الكاملة بعد الجامعة . النقطة الثانية : سوء نظام توزيع الباحثين على معاهد البحث العلمى . النقطة الثالثة - بل المشكلة الكبرى - هى نقص المجالات والكتب العلمية الحديثة . ان العلم يتطلب القراءة المستمرة . فى الأدب أنت تبدأ بقراءة أقدم الكتب . فى العلم .. العكس .. يجب أن تبدأ بأحدث الكتب . ونحن نرتكب جريمة كبرى فى حق أنفسنا عندما نقصر فى حل هذه المشكلة .. لأننا نعزل أنفسنا تماما - باختيارنا - عن عصرنا» .

قلت : هذه نقاط هامة بلا شك . ولكن .. ألا توجد إلى جانبها مقترحات لك لتحقيق نتائج سريعة ؟

أجاب : «شىء واحد يعطيك نتائج عاجلة : التركيز . نحن نحتاج إلى مراكز علمية أقل عددا ولكن أكبر قوة . إن هذه المراكز يجب أن تمثل مدارس علمية . ولا يوجد علم بغير مدارس علمية . كل مدرسة علمية لابد من تدعيمها تماما وجدا . لا بد مثلا من استضافة العلماء الأجانب الممتازين فى كل فرع علمى . إن النتائج الكبرى فى العلم لن

تتحقق إلا باحتكاك أحسن كفاءتنا بأبرز العلماء الدوليين . هذا هو ماحدث مثلا فى مجال الكيمياء العضوية ، ولذلك فهى تحقق نتائج كبيرة فى مصر ..

«.. نقطة ثانية ، هى بعثاتنا العلمية . هذه البعثات هى أيضا يجب تركيزها . ان المبعوثين يعودون بعد أن عاشوا وسط مدارس علمية متنافرة ومتعددة . ان التفاهم العلمى السريع صعب بين واحد عائد من المجر مثلا ، وآخر عائد من أمريكا ، وثالث عائد من روسيا ، ورابع من فرنسا ، وخامس من إنجلترا .. الخ» .

قلت مقاطعا : لو سمحت .. أنت أشرت منذ لحظة إلى أهمية المدارس العلمية .. لماذا تأخذ فى رأيك هذه الأهمية ؟

أجاب : «لأن الحركة العلمية تتوقف كثيرا على العوامل الشخصية . فحينما يوجد لديك عالم نابغة فإن وجوده كفيلا يخلق مدرسة علمية ..

«.. باختصار : ان العلم بقدر ما هو جماعى فى حركته .. فإنه شخصى فى نموه . ولذلك ففى معظم الدول المتقدمة .. عندما يصل الشخص إلى درجة أستاذ جامعى يقيمون له معهدا علميا مجهزا ويجعلونه مديرا له ، لكى يتربى على يديه جيل آخر من بعده» .



كلام معقول ؟

طبعاً . وهناك كثيرون يتفقون مع الدكتور النادى فى رأيه . مثلا .. الدكتور «جيمس كوانانت» الذى ظل رئيسا لجامعة هارفارد الأمريكية عشرين سنة حتى عام ١٩٥٣ . كان يؤكد كثيرا على الجانب الشخصى فى العلم . وعلى أن العلم هو أولا رجل عالم .. والباقي يجرى بعد ذلك . وكان يقول : «إن الثورات التى حدثت فى العلم .. إنما جاء بها رجال باحثون ظليقون غير مقيدين . إن الجامعات هى المكان الطبيعى للبحث العلمى غير المقيد . العلم للعلم . ومراكز البحوث هى المكان الطبيعى للباحثين وفق برنامج وخطه . العلم للحياة» .

وهنا أعود إلى الدكتور محمد عبد المقصود النادى لأسمع منه :

«أنا أيضا أعتقد أن البحث العلمى ينمو أساسا فى الجامعات . إنها المكان الطبيعى للبحث العلمى الحر ، بشرط أن نفهم أن الجامعة هى أستاذ .. زائد طالب .. زائد معمل .

أما معاهد البحوث فهي التى تتولى بحث المشاكل العاجلة ، إنها تتخصص فى موضوعات محددة تطبيقية وهامة للاقتصاد القومى . والمشكلة عندنا هى أننا خلطنا بين الاثنين .. فلا الجامعة قامت بدورها .. ولا المعاهد حلت محل الجامعة ..

«.. البيئة العلمية شرط أساسى لنمو العلم . أما الوحدة العلمية فهي قاتلة .
«.. الطاقة الذرية بدأت هى الأخرى كعلم للعلم . وانتهت إلى ما نراه الآن .. إنها مستقبل العلم .

«.. أمنيتى فى المستقبل هى أن أقيم فى جامعة القاهرة معملا للطبيعة النووية يحقق نتائج ذات قيمة» .



و .. ماذا بعد ؟

أن هناك مسرحية (النبيل البورجوازى) كتبها موليير . فى المسرحية حادث مشهور.. لقد شعر بطل المسرحية بسعادة بالغة عندما علم فجأة أنه كان طول حياته يتكلم .. النثر !

ولا شك أن معظمنا سوف يشعر بنفس السعادة عندما نجد علماء ، كالدكتور النادى ، مازالوا .. برغم كل ما نفعله ضد العلم .. يعيشون بيننا . نحن إذن لا ينقصنا العلماء . ربما . ولكن ينقصنا بالتأكيد : أن نفهم العلماء . أن نوفر لعقولهم مناخا علميا يستنشقون منه هواء صحيا .

و .. عند التاريخ ما يقوله لنا فى هذا الشأن . لقد عاشت أثينا واسبارطه فى عصر واحد . اهتمت أثينا بحرية العقل . واهتمت اسبارطه بحرية العضلات .

النتيجة : انتصرت اسبارطه يوما ، ولكن خلد ذكر أثينا . انتصرت اسبارطه يوما ، وانتصرت أثينا ألف سنة .

محاولة .. لتأميم القانون



إعطني من وقتك ثلاثة أيام - ٣ أيام فقط لو سمحت - لنقضها معا داخل جدران أربعة . بعدها سأحاولك إلى إنسان آخر . ربما تصبح فيلسوفا جدا . ربما مجنوننا جدا . ربما عاقلا جدا . ربما ثرثارا جدا . ربما صامتا جدا . ولكن المؤكد في هذا كله : إنك في النهاية ، سوف تصبح شخصا آخر . آخر جدا .

إن الله - وبعض الناس أيضا - هو الذي يعلم ماذا يمكن أن يحدث لك في هذه الأيام الثلاثة .. داخل الجدران الأربعة . وللإختصار ، فإن الشيء الأساسي هو : إنني سأمنع عنك العدل . سأمنع عنك القانون .

وسوف أستطيع ذلك دائما ، ما دمت أنت ضعيفا وأنا قوى .. وما دمت بلا سلطة ، وأنا معي كل السلطة . فالقوى هنا يفرض قانونه على الضعيف . إنها صورة حديثة جدا لانحراف السلطة . وهي أيضا صورة قديمة جدا لانحراف القوة . مشكلة بحثت البشرية عن حل لها ، حتى قبل أن يتحدث عنها أفلاطون في جمهوريته .

ففي بعض القبائل البدائية شوهد المحاربون وهم يجهزون على العجائز .. ثم يلتهمون لحمهم . واحتاج الأمر إلى فترة طويلة من التطور ، قبل أن يكف الإنسان عن أكل أقربائه .. ليتجه إلى أكل أعضاء القبائل المجاورة .

ثم حدث - وكان لابد من ذلك - أن اكتشف الإنسان حاجته إلى القانون .. إلى مجموعة من القواعد المعروفة مقدما ، لكي تحميه من طغيان أخيه الإنسان . وعندما وضع جزاء على مخالفة تلك القواعد .. أصبح هناك ما نسميه الآن : القانون .

• جريدة «أخبار اليوم» : ١٣/٧/١٩٦٨ .

فالقانونون نشأ أصلاً في صورة تحفظات على القوة . تحفظات على السلطة . هذه التحفظات تقل فتندم في مجتمعات الغاب . وتزيد فتتأكد في المجتمع المتحضر . هذا إذن هو السبب الأصلي الذي وجد القانون من أجله . وهو أيضاً الموضوع الذي يتحدث فيه هذا الرجل : الدكتور ثروت أنيس الأسيوطي .



يقول الرجل : «لا يوجد مجتمع بلا قانون . فبمجرد اجتماع إنسان مع آخر .. ينشأ القانون فوراً . بمعنى أنه في كل مجتمع لابد من وجود قواعد للسير والسلوك . لقد وجدت هذه القواعد عند الإنسان البدائي في صورة تحديد للأعمال المحرمة ، سماها الإنسان البدائي : التابو . ان (التابو) هي قواعد دينية تنسب إلى القوى الخارجة عن الطبيعة ، بمقتضاها يحرم الإنسان على نفسه أفعالاً معينة ، وإلا تعرض لعقاب الآلهة .. »
 «.. ثم تطورت قواعد التابو بعد مراحل طويلة ، بحيث أصبح هناك ما نسميه الآن : القانون . وتعريف القانون ما يزال محل خلاف . البعض يقول إنه مجموعة من القواعد الملزمة التي تحكم علاقات الأفراد في المجتمع . تعريف شكلي . أما التعريف الصحيح فهو : أن القانون هو مجموعة من القواعد التي يلتزم بها الأفراد في المجتمع .. لخدمة مصالح الطبقة الحاكمة .. »
 «.. فالرأسمالية هي الطبقة الحاكمة في المجتمع الرأسمالي ، ومن ثم فالقانون مسخر لخدمتها . والشعب هو السلطة العليا في المجتمع الإشتراكي ، ولذلك فعلى القانون أن يخدمه أولاً .. »

«.. حسناً . أنت تقول إنني هكذا مؤمن بالتفسير المادي للقانون . فعلاً . فالقانون ليس ناشئاً من أسباب مثالية أو أخلاقية . إنه ترجمة لصراع بين مصالح وطبقات متناقضة في المجتمع . الطبقة التي تنتصر هي التي تضع في النهاية كل القوانين» .



ولكن - وهذه أصول المناقشة - من الواجب أن نتعرف مقدماً على الرجل صاحب هذه الآراء ، قبل أن نواصل معه المناقشة : أخذ وعطاء .
 الرجل هو الدكتور ثروت أنيس الأسيوطي - ٤٢ سنة . أعزب . أستاذ مساعد بكلية الحقوق جامعة القاهرة . إنه الوحيد في مصر المتخصص في «فلسفة القانون» . وعن

تخصه هذا حصل على جائزة الدولة التشجيعية سنة ١٩٦٥ ، ووسام الجمهورية من الطبقة الثالثة نتيجة لتفوقه العلمى ودراساته القانونية . وهو يجيد ٨ لغات أجنبية .
أكرر : ثمانى لغات أجنبية ، هى : الإنجليزية .. الفرنسية .. الإيطالية .. الألمانية .. الإسبانية .. البرتغالية .. اللاتينية .. الروسية .

وهو يذكرنى بنوع خاص من الناس . نوع تحس معه أن ماضيه كله .. هو مجرد مقدمات فى كتاب طويل مفتوح . مجرد تمهيد . أو لقل .. مجرد بروفة .. لأفكار أخرى لم تبدأ بعد فى الظهور . مع مثل هؤلاء الأشخاص لا نستطيع أن نصل إلى حكم قاطع ، أو تنبؤ مؤكد ، حول نوع المستقبل الذى ينتظرهم .. فما زالت لديهم أشياء كثيرة لم يفصحوا عنها بعد . حسنا . هذا الرجل من هذا النوع .

والدكتور ثروت ترتيبه الثالث بين ستة إخوة . هذه من المرات القليلة فى حياته التى لم يكن ترتيبه فيها الأول . الإخوة بالتساوى : ثلاثة ذكور ، وثلاث إناث . وهو لا يدخن . لا يشرب . ينام قليلا . يتدين قليلا . مجرد مرة فى الأسبوع يذهب فيها إلى الكنيسة كل يوم أحد .

والرجل نفسه متعدد الزوايا : الجسم طويل نسبيا . الوجه أسمر تقريبا . خال من العواطف غالبا . العقل نشيط تماما . إنه عقل لم يعلن بعد عن كثير من محتوياته . وهو إنسان من الذين تختلف معهم كثيرا ، وتحترمهم دائما . وتقل دائرة الخلاف تماما كلما كان القانون هو موضوع المناقشة . ولذلك فسوف أسأله فورا : أنت تخصصت فى فلسفة القانون .. أليس كذلك ؟ ما هى إذن فلسفة القانون ؟

أجاب الرجل : قبل فلسفة القانون هناك أولا النظرة العلمية للقانون . إن الأسلوب العلمى لبحث أى موضوع يقتضى مبدئيا الربط العالمى للظواهر . مثلا .. أنت يتعذر عليك فهم فيضان النيل فى القاهرة فى شهر سبتمبر كل عام مالم تدرس حركة الرياح فوق المحيط .. وما تحمله من سحب كثيفة على جبال الحبشة وهضبة أوغندا ، حيث تتساقط الأمطار هناك بغزارة ، ثم تتجمع مجارى المياه وتظل تتدفق إلى أن تصب فى مجرى نهر النيل الممتد إلى ساحل البحر الأبيض . فظاهرة الفيضان التى تراها فى القاهرة تتوقف إذن على ظواهر أخرى عديدة ، أهمها سقوط الأمطار على بعد أربعة آلاف

كيلومتر جنوبا ، ثم التكوين الجغرافى من خط الإستواء إلى البحر الأبيض ، ثم طبيعة المياه فى الاندفاع... إلخ .

«.. ونفس الحال نراه بالنسبة إلى الظواهر الاجتماعية . فالإنسان يولد فى مجتمع . فكره وعاداته وأخلاقه مرتبطة بظروف هذا المجتمع . ولا تفسير لتصرفات الإنسان إلا بالرجوع إلى ظروف هذا المجتمع . وبالنسبة للقانون ، فإن هذا معناه ضرورة الربط بين القانون من جهة ، وبين الاقتصاد والاجتماع والفلسفة والعلوم السياسية من جهة أخرى . فالقانون وليد لظروف اجتماعية متشابكة» .

قلت : ما زال السؤال مطروحا .. تعريف فلسفة القانون .

أجاب الدكتور ثروت أنيس الأسيوطى مسترسلا : «إن الفلسفة أصلا هى علم العموميات . فهى تهتم بمعرفة الأصول الأولى للأشياء وأسبابها . وفلسفة القانون – مثل كل فلسفة – تهتم بدراسة القانون كظاهرة تحكمها أسباب عامة مشتركة فى تطورها . فالفلسفة هنا تهتم بما هو كائن .. لكى تصل بعد ذلك إلى ما يجب أن يكون . إنها تهتم أولا بنشأة القانون ، ثم بغايته ، ثم بطرق تفسيره وتطبيقه» .

قلت : حسنا . نبدأ إذن من النقطة التالية .. لماذا نشأ القانون أصلا ؟

أجاب بعد صمت : «هناك رأيان فى هذا الصدد . أصحاب الرأى الأول – وزعيمهم فقيه إيطالى اسمه سافينى – قالوا إن القانون مثل اللغة ، يرتبط ارتباطا عضويا بطبيعة كل شعب من الشعوب . إنه يتكون بطريقة تدريجية غير محسوسة ، مستندا إلى الاقتناع العام من جانب الشعب .. مستقلا عن الاختيار الحر لكل فرد . فالقانون ينشأ أولا فى شكل عرف من خلال العادة والإيمان الشعبى ، ثم يتبلور عن طريق علم القانون ..

«.. وهناك رأى آخر مضاد فى تفسير نشأة القانون . الرأى يقول إن القانون يرجع فى نشأته إلى عوامل مادية لا إلى عوامل مثالية . فالقانون ليس وليد اقتناع الشعب ، بل هو يفرض عليه بالقوة . القوة ليست فقط مادية أو عسكرية ، بل هى أساسا قوى اقتصادية وسياسية . وإذا استخدمنا التعبيرات الحديثة قلنا .. إن القانون تفرضه مراكز القوة على الشعب لخدمة مصالح الطبقة الحاكمة ..

«وبالطبع أعتقد أن الرأى الأخير هو الصحيح . وخذ مثلا على ذلك فى العلاقة بين المالك والمستأجر . إننا نلاحظ أنه فيما مضى كان ملاك العمارات يتحملون ثمن المياه التى

يستهلكها المستأجر . ولكن فى معظم العمارات الحديثة أصبح المستأجر هو الذى يتحمل ثمنها . هل هذا التحول نشأ نتيجة اقتناع المستأجرين به ، أى نتيجة للعرف كما يقول أصحاب الرأى الأول ؟ طبعا لا . وإنما نشأ هذا التحول نتيجة لوجود أزمة مساكن .. جعلت المستأجر يتعرض لحالة ضغط اقتصادى من جانب الملاك .. ومن ثم فإنه مضطر لتحمل ثمن المياه ، وإلا فلن يحصل على الشقة التى يحتاج إليها ..

«.. فالخلاصة إذن هى أن القانون يفرض على الشعب وهو فى ذلك يعبر عن مصالح الطبقة الحاكمة ، وعن مصالح مراكز القوة» .

قلت : وكيف يمكن أن يصبح القانون معبرا فعلا عن مصالح الشعب ؟

أجاب بسرعة : «لا يمكن إلا إذا أصبح الشعب نفسه هو مركز قوة ، بحيث يطغى على مراكز القوى الأخرى» .



ويذكر جرس الباب فى منزل الدكتور ثروت أنيس الأسيوطى .. ومن ثم فالحديث معه يتوقف مؤقتا . ولكن هذا لا يمنع بالطبع من الحديث عنه . فدراسة حياته يمكن أن تضع لها عنوانا من نوع (كيف تقاوم ظروف أقوى منك وأضعف من إرادتك) . أو لنقل (كيف تصعد من القاع إلى القمة فى زمن قياسي) .

ففى حياة الدكتور ثروت أشياء كثيرة تستحق الحديث .. مع أنه يخفيها عن كثيرين من أصدقائه . من ذلك مثلا أنه اضطر إلى العمل فى مطلع حياته بجانب دراسته . التفسير اقتصادى ، كالتفسير الذى يؤمن به بالنسبة للقانون . لقد اضطر إلى العمل صبيا فى شركة المحلة الكبرى للغزل والنسيج بيومية قدرها ثلاثة قروش ونصف القرش . كان ذلك فى سنة ١٩٤٠ . ثم فصل طبعا عندما اكتشف أحد مفتشى الشركة صغر سنه .

وفى سنة ١٩٤٤ كان طالبا بالتوجيهية (الثانوية العامة) واضطر أيضا للعمل خلال دراسته . أعمالا كثيرة . من بينها مثلا صبى بقال ، عامل فى محل تجارى ، مدرس خصوصى . ومع ذلك فقد نجح فى نفس السنة وكان ترتيبه الأول على جميع طلبة الثانوية العامة فى (القطر المصرى) . فى تلك السنة حصل على مكافأتين ماليتين نتيجة تفوقه ، مجموعهما ٨٠ جنيها ، إحداهما من وزارة المعارف .

ولكنه لم يلتحق بالجامعة فور حصوله على شهادة التوجيهية . لقد انقطع عن الدراسة لمدة أربع سنوات . حاجته إلى العمل هي السبب أيضا . ولكنه عندما التحق بجامعة القاهرة حصل منها على ليسانس الحقوق (١٩٥١) بدرجة الامتياز . ثم سافر في بعثة دراسية إلى ألمانيا الغربية .. وحصل على الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة ميونيخ (١٩٥٧) . بعدها بسنتين حصل من القاهرة على الدكتوراه مرة ثانية مع مرتبة الشرف الأولى . ثم سافر في بعثة دراسية إلى أمريكا . من هناك حصل على درجة الأستاذية في فلسفة القانون من جامعة نيويورك .



قلت له : ما هي أسباب تفوقك العلمي .. في رأيك ؟

وابتسم الرجل . لا إجابة .

إذن سأجيب أنا بدلا منه . إنه : الهدف المقرر مقدما .. زائد الصبر الموجود دائما .. زائد الاستمرار . إن ساعات تفرغه للقراءة تصل إلى ثمانى ساعات يوميا أيام عمله . فى الإجازة الصيفية يرتفع المعدل إلى ١٦ ساعة يوميا . ست عشر ساعة من القراءة كل يوم .. تصور ؟ (وعندما يقل المعدل عن ذلك أشعر بقلق على نفسى) . إن مكتبته الخاصة فى منزله تضم خمسة آلاف كتاب . مكتبة أنيقة .

والواقع أن صبره فى القراءة له جذور فى حياته . وخلال سنتى دراسته فى أمريكا كان يقضى وقته يوميا فى مكتبة جامعة نيويورك . فى الصباح يأخذ معه حقيبة فيها زجاجة لبن وساندويتشات .. ثم يجلس فى المكتبة من الثامنة صباحا إلى الحادية عشرة مساء . قراءة بلا انقطاع . وكانت النتيجة هى كتاب من تأليفه بعنوان «نشأة المذاهب الفلسفية وتطورها» . كتاب ضخم . استعان فى تأليفه بـ ١٢٠٠ مرجع أجنبى بثمانى لغات . تصور ؟ (أعرف أساتذة جامعة فى مصر مراجعهم الوحيدة فى تأليف كتبهم هى مقالات الصحف .. العربية) .

المهم .. نعود إلى القانون .

فمن الأقوال المشهورة فى التاريخ قول أحد الفلاسفة : على الشعب أن يناضل من أجل قانونه .. تماما كما يناضل من أجل الدفاع عن أسوار مدينته .

وأخر كان يقول : إن الشعب الذى يسكت على الاعتداء على قوانينه .. إنما يوقع بيديه على قرار إعدامه .
 أما بسكال فيقول : العدل بغير القوة عجز . والقوة بغير العدل طغيان . فيجب جمع العدل مع القوة .. بجعل العادل قويا ، والقوى عادلا .
 وقبله قال فليتشر : لا تخبرنى بماذا يقول القانون . أخبرنى بماذا يقول الناس عن القانون .



وأسأل ثروت أنيس الأسيوطى : هل تعتبر القانون قانونا .. حتى ولو كان لا يطبق ؟
 أجاب بسرعة : «لا طبعاً . فالعبرة بالتطبيق . وإلا فلن يساوى القانون أكثر من ثمن الورق الذى كتب عليه» .
 قلت : لماذا اعتبر كبار المفكرين دائما أن حماية القوانين من الاعتداء عليها هى واجب الشعب بأكمله ؟

أجاب : «لأن الشعب هو الذى سيخسر من هذا الاعتداء» .
 قلت : حسنا . هذا يفتح أمامنا موضوعا جديدا .. ما هى وظيفة القانون أصلا ؟
 استوى الرجل بقامته فى كرسيه . قامه صلبة . بعد لحظات أجاب : «القانون دائما فى خدمة الطبقة الحاكمة ، فوظيفته خدمة مصالح الطبقة الحاكمة . ووظيفة القانون تختلف باختلاف هذه المصالح . وباختلاف القوة الاقتصادية المسيطرة على المجتمع .. يختلف القانون . مثلا .. الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر كانت لخدمة الطبقة البورجوازية و ضد طبقة الإقطاع . وبالتالي فإن مجموعة قوانين نابليون التى صدرت فى فرنسا سنة ١٨٠٤ كانت مهمتها حماية الطبقة البورجوازية . فهى تنص مثلا على أن الملكية الخاصة حق مطلق . وهى تنص على أن العقد شريعة المتعاقدين ، فلا يضار المشتري من أية ظروف يتعرض لها البائع بعد إبرام العقد . وهى لا توجب المسئولية إلا حيث يكون هناك خطأ . فالعامل مثلا لا يحصل على تعويض عن إصابته فى المصنع إلا إذا ثبت وجود خطأ شخصى من جانب صاحب المصنع . طبعاً هذا صعب .. إن لم يكن مستحيلاً .. فى التطبيق ..

«.. وباختصار ، فالقانون فى المجتمع يخدم الطبقة الحاكمة . فى عصر الاقطاع كان فى أوربا تحالف بين رجال الدين والاقطاع . ولذلك كانت جرائم الدين هى أكبر الجرائم . فى عصر الرأسمالية يسيطر الرأسماليون على الحكم . لذلك فجرائم الاعتداء على الملكية الخاصة هى أهم الجرائم . فى المجتمع الإشتراكى الشعب هو صاحب السلطة . ولذلك فالجرائم الاجتماعية الموجهة ضد المجتمع كله هى أهم الجرائم» .

قلت : هل تضرب لى أمثلة على الفارق بين وظيفة القانون فى المجتمع الرأسمالى ووظيفته فى المجتمع الاشتراكى ؟

قال : «طبعاً . فى المجتمع الرأسمالى جرائم الاعتداء على الأشخاص والأموال هى أهم الجرائم . خذ السرقة مثلاً . إن أقل حادث سرقة يعاقب عليه الجانى بالسجن سنتين على الأقل . فالقانون هنا ينظر للشارق باعتباره معتدياً على حق من الحقوق الأساسية التى يحميها ، وهو حق الملكية . أما فى المجتمع الاشتراكى فتصل عقوبة السرقة إلى حدها الأدنى ، لأن القانون هنا يرى أن الجانى ما كان ليسرق لولا حاجته . فالمجتمع يعتبر أن علاج مشكلة الجوع هى مسئولية الشعب كله ، فلا يتحمل نتيجتها شخص واحد ..

«.. مثل آخر من مجتمعنا نحن : الأشخاص الذين حجزوا سيارات (نصر) لدى شركة النصر للسيارات . ثم مرت سنوات دون أن تفى الشركة بالتزامها بتسليم السيارة . لو أننا فى مجتمع رأسمالى .. فإن الشركة ستعتبر مسئولة عن تسليم السيارات للحاجزين بمقتضى العقد تحت أى ظرف من الظروف ، حتى ولو أعطتها الدولة العملات الصعبة اللازمة لها خصماً من الرصيد المخصص لاستيراد المواد التموينية للشعب . أما فى المجتمع الاشتراكى فالعقد ليس مقدساً فى حد ذاته ، ولكنه أداة فى تنفيذ خطة التنمية . فيخضع بالتالى للظروف التى تتأثر بها الخطة . فإذا تغيرت أولويات الاستيراد ، بحيث خصصت العملة الصعبة لاستيراد الاحتياجات الأساسية للشعب كله - دون الإحتياجات الكمالية لبعض أفرادها كالسيارات - فإن الشركة لا تكون مسئولة عن عدم تسليم السيارات للحاجزين فى المواعيد المقررة» .

قلت : فى تفسيرك لقوانين كثيرة تبدو ميالاً لتفسير بعضها - كالقانون التجارى مثلاً - على أساس الصراع الطبقي .. أليس كذلك ؟

أجاب الدكتور ثروت : «فعلا . بل إننى أصل إلى أبعد من ذلك ، فأطالب بضرورة إلغاء القانون التجارى أصلا . إنه قانون طبقي . إنه تابع للنظرة الرأسمالية للقانون . لقد نشأ فى القرون الوسطى من خلال الصراع الطبقي الذى احتدم بين الإقطاع والبورجوازية .. لقد خص التجار أنفسهم بقانون يحكم علاقاتهم أيام الصراع الطبقي الرهيب فى أوربا . ثم أخضعوا الشعب كله لهذا القانون حينما يتعامل مع التجار . ولقد ألغى القانون التجارى فى بلاد كثيرة ، حتى فى بعض الدول الرأسمالية . ومن ثم فما زال رأبى فيه كما هو .. قانون طبقي» .

قلت : لماذا يقولون عنك إنك يسارى ؟

أجاب : «المسألة ليست يمينا أو يسارا . المسألة هى : البحث عن الحقيقة . وهذه مشكلة أبدية» .

□□□

ونعود إلى القانون .

إن أهم كتاب ألفه ثروت أنيس الأسيوطى حتى الآن هو «نشأة المذاهب الفلسفية وتطورها» . أهم كتاب .. بالمقاييس العلمية على الأقل . فلقد أحدث ظهور هذا الكتاب ضجة علمية فى معظم الدوائر القانونية الكبرى فى العالم .

قالوا عنه فى اليونان : إنه كتاب يفتح آفاقا واسعة لأول مرة فى نطاق فلسفة القانون .

وقالوا عنه فى ايطاليا : إنه كتاب يذكرنا بأبحاث ونظريات العالم الإيطالى الكبير فيكو (وهو فقيه ايطالى له مكانة هناك كمكانة ابن خلدون عند العرب) .

وقالوا عنه فى فرنسا : إن المرء حينما يقرأ كتاب الأسيوطى يفاجأ بغزارة معلوماته ودقتها خاصة بالنظر إلى ضخامة موضوع البحث وتعدد اللغات التى يستخدمها والعقبات التى يتناولها منذ حمورابى إلى اليوم .. والواقع إن نظرية النسبية التى يعتنقها الكتاب هى النظرية الصحيحة الوحيدة التى تمكن من فهم أى فلسفة .

□□□

قلت لثروت أنيس الأسيوطى : ماهى نظرية النسبية التى تعتنقها ؟

أجاب الرجل : «ملخصها أن القانون نسبي وليس مطلقا . إن النار تحترق بنفس الطريقة عند الفرس وعند الإغريق . القانون ليس كذلك . إنه نسبي . بمعنى أنه يعبر فقط عن ظروف المجتمع الذى يخاطبه ، والعصر الذى يصدر فيه . ولذلك فهناك مدرستان فى تفسير القانون . مدرسة نسميها علميا مدرسة (الشرح على المتون) .. أى هؤلاء الذين يفصلون بين مبادئ القانون وواقع الحياة . وتكتفى فى تفسير القانون بشرحه اللفظى والشكلى . ومدرسة أخرى - هى الصحيحة - تؤمن بضرورة الربط بين القانون من جهة ، وبين الاقتصاد والاجتماع والفلسفة والعلوم السياسية من جهة ثانية . إنها ترى القانون نتاجا للواقع . ومن ثم فهى تدرس الواقع أولا لتفسر القانون بعد ذلك» .

□□□

حسنا . نعود إلى الواقع .

والواقع هنا هو مصر . فلو أخذنا معدل خريجي الجامعات المصرية كمقياس ، لوجدنا أنه من بين كل ١٥ ألف مواطن يعيشون الآن فى مصر هناك واحد فقط يفهم القانون . أما الذين ينفذون القانون فعلا فأقل من ذلك كثيرا . وأسأل ثروت الأسيوطى : هل أنت راض عن الأسلوب الحالى فى تدريس القانون بمصر ؟

أجاب الرجل بكلمات مبلة بالأسف : «إن المشكلة الرئيسية فى التعليم الجامعى هى ضخامة عدد الطلبة من ناحية ، وقلة عدد الأساتذة من ناحية أخرى» . قلت : لو كنت تنادى بتخفيض عدد الطلبة فأنت مخطيء . أجاب : «لا . ولكننى أنادى بزيادة عدد الأساتذة . لأن الوضع الحالى معناه أن المحاضرات أصبحت مجرد حصص استماع» .

قلت : بعيدا عن الجامعة .. هل تعلم أننى أختلف معك فى أشياء كثيرة ؟

- أعلم .

- ألا يضايقك ذلك ؟

- بالعكس .

- إذن .. هل تطبق ذلك على طلبتك ؟

- فعلا . إننى أكون سعيدا لو عارضنى طالب فى مسألة علمية . وأكون سعيدا أكثر لو تأكد صوابه وثبت خطئى .
- هل تعتبر نفسك ناجحا ؟
- (بابتسامة) .. لا تعليق .
- ما هو مقياس نجاح الأستاذ الجامعى ؟
- رأى طلبته فيه .
- هل تتعمد التواضع هنا ؟
- لا . أنا أتعمد الحقيقة .
- ما الذى ينقص دارسى القانون فى مصر ؟
- أن يقرأوا فى علوم الاجتماع والاقتصاد والتاريخ على الأقل ، فهذا هو الحد الأدنى اللازم لدراسة القانون .
- ما هو مشروعك القادم ؟
- استكمال سلسلة كتب عن نظام الأسرة فى العالم ، بهدف التوصل إلى نظرية شاملة لتطور الإنسانية .
- متى تنتهى من ذلك ؟
- بعد ١٠ سنوات على الأقل .
- هل تؤيد ، أو تعارض ، استقلال القضاء ؟
- طبعا أؤيده .
- ولماذا (طبعا) هذه ؟
- لأن استقلال القضاء هو الضمان الوحيد لتنفيذ القانون بنزاهة .

□□□

والأسيوطى معه الحق .

فالقانون هو قاموس بشروط الحياة فى المجتمع . أو - باختصار - هو تسجيل لعلاقات القوة فى المجتمع . وكلما كان الشعب أكثر قوة . كان القانون أكثر عدلا . والقضاء أكثر نزاهة .

وللاختصار مرة أخيرة : إن تاريخ البشرية تلخصه هذه الحقيقة .. إن الإنسان يعيش في محاولة مستمرة لتأميم القانون . لجعله ملكية عامة . لا فرد .. لا حزب .. لا سلطة . الشعب فقط هو الذى يجب أن يخدمه القانون . الحق فقط هو المعيار . كافحت الإنسانية طويلا لتحقيق هذا الهدف . ويبدو أن الكفاح سيستمر لفترة طويلة قادمة ، دون نتيجة حاسمة .

حسن .. فى القفص



[مبدئياً : بطاقة هوية . الإسم : حسن هيرمان رو . اسم ولى الأمر السابق : هيرمان رو . اسم ولى الأمر الحالى : عبد السلام عبد الغنى . العمر : ١٣ الهويات : مشاهدة الأشكال الغريبة التى تسمى نفسها (بنى آدم). اسم الزوجة : حسنية . اسم الشهرة : شيتا . فلسفته فى الحياة : بعض الناس لا حيلة لهم فيما هم عليه . مشكلته فى الحياة : ارتفاع سعر الفول السودانى . رأيه فى مشكلة التليفونات : مع ع ع ع ع ع ع ع ع ع . أحلام لا يفكر فيها : أن يحقق له مكتب التنسيق رغبته فى دخول كليته المفضلة بالجامعة.]

- ١ -

الإنسان حيوان غادر .

- ٢ -

الحيوان إنسان ناقص . إنسان لم يتم . «حسن» ليس إنسانا . «حسن» هو مجرد شمبانزى . إنه مجهول الأب . مجهول الأم . ولكنه معروف الجنسية . معروف تقريبا . لقد ولد حيث يولد كل شمبانزى . ولد فى غابات افريقيا . من هناك تم اصطياده وترحيله إلى ألمانيا .

- ٣ -

آخر ذكريات «حسن» مع الغابات كانت فى ذلك اليوم الذى وقع فيه فى الأسر . إنها معركة دارت بين الإنسان ، وبين قافلة من الشمبانزى ، كان «حسن» واحدا منهم . معركة

• جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٧٢/٨/٢٦ .

رأى فيها حسن كل رفقاءه يسقطون قتلى .. فيما عداه . فى ذلك اليوم - منذ ١٣ سنة - لم يكن اسمه «حسن» . ولم يكن يعلم أن هدف الإنسان من اصطياده هو أن يتفرج عليه . هكذا وصل «حسن» إلى أيدى متعهد فى ألمانيا الغربية اسمه «هيرمان» . ومن هناك اشترته حديقة حيوان الجيزة بالقاهرة ، التى قررت على الفور أن تسميه : «حسن» .

- ٤ -

جاء «حسن» إلى القاهرة وعمره ست سنوات . الآن ١٣ سنة . عند وصوله لم يكن يعرف أحدا فى القاهرة . الآن : مازال لا يعرف أحدا فى القاهرة .

- ٥ -

عندما دخل «حسن» إلى قفصه فى حديقة الحيوان بالجيزة ، كان التاريخ هو نوفمبر . من يومها والحياة تسير به .. نوفمبر بعد نوفمبر بعد نوفمبر . فى السجن يحتاج الإنسان إلى نوفمبر واحد ، أو يناير واحد ، أو يوليو واحد .. لكى يموت حوله وفى داخله كل شىء طيب . يموت الوفاء والتفاؤل والأمل . يموت المستقبل . تموت الابتسامة . تموت الحياة .

أن «حسن» يسير فى الحياة بمجرد ثلاثة أصدقاء .. أحدهم سجان . إنه لا يعيش حياته بدافع من الرغبة ، ولكن بحكم الغريزة . إنها الغريزة التى تشدنا جميعا إلى حياة لا نرضاها .

أن رفيقة «حسن» فى داخل القفص هى «حسنية» . لقد تعرفا ببعضهما فى القاهرة ، وهنا فى داخل هذا القفص . لقاء لم يتم وسط غابة .. ولكن فى داخل قفص . لم يتم وهما طليقان .. ولكن بعد أن أصبحا سجينين . لم يتم بحكم الرغبة .. ولكن بمنطق الضرورة . مسألة سوف يكون لها تأثير خطير تاليا على العلاقة بينهما .

- ٦ -

تقول الأوراق الرسمية إن «حسن» قضى فى هذا القفص حتى الآن سبع سنوات . ولكن الواقع إنه منذ دخل هذا القفص ، هذا السجن ، فإنه لم يعد له عمر . له فقط : أقدمية . أقدميته الآن ٨٤ شهرا وأربعة عشر يوما . هذه الأقدمية تستطيع أن تعتبرها موتا افتراضيا . أو تعتبرها حياة اسمية . مسألة تتوقف على وجهة نظر .

إن وجهة نظر «حسن» نفسه واضحة .. ليس من كلمات ينطق بها .. ولكن من حركات يصدرها . فبصرف النظر عن المكان الذى نقف نحن فيه - نحن المتفرجين - داخل أو خارج القفص .. فإن «حسن» يقف غالبا على بعد نحو عشرة أمتار منا . إنه يحتفظ بهذه المسافة غالبا ، سواء اقتربنا نحن منه ، أو ابتعد هو عنا . حكمة . فى الواقع انها منتهى الحكمة من الشمبانزى «حسن» .. أن يحتفظ دائما بمسافة بينه وبين الناس . ففى هذه الأيام من الأفضل كثيرا أن نرى بعض الناس من بعيد ، من مسافة ، حتى لا نبصق عليهم .

- ٧ -

الناس فى داخل حديقة الحيوان يتزاحمون حول قفص «حسن» . يتزاحمون ويتفرجون . إننى لا أستطيع أن أحكم بدقة : أيهما يتفرج على الآخر ؟ الناس يتفرجون على «حسن» .. أم «حسن» هو الذى يتفرج عليهم ؟
من خلال الزحام والمتفرجين يلتقى اثنان من الأصدقاء . من طريقتهما فى الترحيب ببعضهما اكتشفت أنهما يلتقيان بعد غياب طويل . إن الحوار بينهما يدور سريعا ومتلهفا ومتتابعا :

- إيه يا راجل ؟ والله زمان .. فين أراضيك دلوقت ؟
- أنت ما تعرفش ؟ فى وزارة الزراعة ..
- يعنى اللى فى وزارة الزراعة .. يختفى كده ؟
- أبدا والله إحنا تحت النظر ..
- تكونشى اتجوزت ؟ آه .. والله صحيح .. باين فى إيدك وعلى وشك إنك متجوز ..
- إنما .. أنت عجزت كده ليه ؟
- يا عم .. هو أنا زيك ؟ داير على حل شعرى ؟ أنا - الحمد لله - متجوز ومبسوط
- ٢٤ قيراط .. عقبالك ..
- والله يا سيدى أنا مستعد .. بس هى فين العروسة ؟
- أنا عندى لك عروسة ..
- مين ؟
- مراتى !

- ٨ -

الحارس على قفص «حسن» يتكلم .

يقول عم عبد السلام : شوف يا بيه .. الحيوان ده عقله صغير .. لازم الواحد ياخده على قد عقله . يعنى مثلا.. الواحد ما يضربوش ، ما يزعلوش ، مايقولش له كلمة تضايقه .. حركة تنرفزه ..

«.. عندك مثلا «حسن» و «حسنية»..»

«.. دول وصلوا هنا وعمرهم ست أو سبع سنين . أنا قايست وقعدت معاهم . عرفت إنهم كويسين . علشان كده تربيتى لهم جابت نتيجة . طبعاً ساعات الحيوان من دول ما يعرفش مصلحته . يعنى مرة كان «حسن» عيان قوى .. فاضطر الدكتور يقرر له ١٥ حقنة .. كل يوم طبعاً أنا اللي كنت أحط الجنزير فى رقبتة لغاية ما ياخذ الحقنة . أول ما خلصت الحقن .. بصيت لقيته مسكنى ، وهات يا ضرب بالأقلام ! ها أعمل عقلى بعقله ؟ مهما كان .. ده شمبانزى . عارف لو «حسنية» هى اللي عملت كده فى .. والله ما كنت سكت لها . «حسنية» دى أصلها شرسة . عمرها ما اتربطت فى جنزير . وبعدين يا بيه .. سيادتك عارف .. عرق النساء ده مالوش أمان ..

«.. عندك مثلا القروود اللي أدامك دول . قروود حبشى . عندنا منهم ثلاثة ذكور .. ١٥ ست . زى ما أنت شايف .. طول النهار خناقات مع بعض . ليه ؟ لأن كل واحدة عايزة تبقى هى الريمو عند الراجل بتاعها . بتيجى مثلا واحدة تلعب شوية .. تأكل بعقل القرد حلاوة . فالباقيين يغيروا . يعملوا إيه ؟ يتخانقوا معاها . يقوم القرد الراجل من دول يشخط فيهم . القرد الحمش يخوفهم ..

«.. ما هو يا بيه سيادتك عارف . كل البلاوى بتيجى من الستات . لو ما كانش فيه ستات .. كانت كل الرجالة تأكل فى طبق واحد ..»

- ٩ -

الشمبانزى «حسن» يتأمل حصته من الطعام . الآن : إفطار . شاي باللبن . عيش .

- ١٠ -

«حسن» فى جلسته هذه معفى من التفكير فى مشاكل هامة وخطيرة .

- معنى من : التفكير فى الفواتير التى تزورها مصلحة التليفونات .
 ومن : حل مسابقة القرارات المتقاطعة التى نسميها قرارات وزارية .
 ومن : متابعة مشكلة فائزة أحمد ومحمد سلطان .
 ومن : تطورات الخلاف بين محمد الموجى وبلغ حمدى .
 ومن : نقد برامج التليفزيون .
 ومن : سماع برنامج ما لا يطلبه المستمعون فى الإذاعة .
 ومن : سماع أغنية الطشت قاللى .

- ١١ -

إشاعة لم يسمع بها «حسن».. مع أنها تتردد فى حديقة الحيوان هنا منذ ١٥ سنة :
 (كان فى الحديقة أخصائى اسمه «مكارى» . إن مكارى ربطته صداقة طويلة بالشمبانزى
 السابق «مرزوق» . وفى مرة سافر مكارى فى مهمة إلى مدينة بنى سويف بالصعيد لمدة ثلاثة
 أيام . فى اليوم الثالث كسر الشمبانزى «مرزوق» قفصه مهتاجا بشدة وخرج مذعورا مفاجئا
 الجميع باندفاعه فى طريق محدد ، ومتعرج ، تبين سريعا أنه يودى إلى مكتب مكارى .
 وفى لمح البصر .. دخل المكتب وعاث فيه فسادا ومن بين ما تناوله من فوق المكتب ،
 وبعبسية ، زجاجة حبر . لقد هزها بشدة ثم أسقطها على المكتب فانسكب منها الحبر على
 الأوراق . فى تلك اللحظة هدا فجأة ، ثم عاد بخطوات بطيئة ، وباختياره ، لكى يدخل
 إلى قفصه . عاد حزينا ومرتجفا وممتنعا تاليا عن تناول الطعام . حدث هذا فى الحادية
 والرابع من صباح اليوم - الأربعاء . بعد ٨ ساعات تلقت حديقة الحيوانات بالجيزة برقية
 تلغرافية من بنى سويف . برقية قصيرة تقول : توفى الأستاذ «مكارى» اليوم - الأربعاء -
 فجأة . الوفاة حدثت فى الحادية والرابع صباحا) .

- ١٢ -

تركت قفص «حسن» و «حسنية» وتجولت بين الأقفاص الأخرى بالحديقة . فى داخل
 القفص - كل قفص - يتم كبت التصرفات التى ورثها الحيوان عن سلالته . إن الحيوان
 السجين هنا لا يمضى حياته يوما بيوم ، ولا ساعة بساعة ، ولا حتى دقيقة بدقيقة .
 ولكنه يقضيها ثانياة بثانوية . فمن داخل القفص أستطيع أن أحس أن الزمن لا يمر . إنه

يكبر نفسه . يدور حول نفسه . مجرد دوران ممل رتيب . في داخل الأسوار ، داخل السجن ، لاشيء يتحرك .

إن الحيوان أمامي قد يسلى نفسه بالتفرج على الجمهور أمامه . ولكن الجمهور ليس دائما عنصرا مسليا . إنه أحيانا ، بل غالبا ما يكون ، عنصرا مؤذيا . إن هذا يجعل دنيا الحيوان هنا أكثر تعقيدا . إن الحيوان يحاول أن يصبر على الناس - مع المتفرجين - ولكن.. حتى الصبر له حدود . إن الشمبانزى يقذفهم بالأشياء حوله . الأسد يتبول نحوهم . إنسان الغابة يبيص في اتجاههم . البيغاء تحاول عضهم . أما إذا لم يكن الجمهور مؤذيا .. فإن الحيوان يحاول أن يفعل العكس . يحاول أن يسليهم . إن هذا هو ما يجعل الدب الأسمر يقف على قدميه الخلفيتين ويلوح بمخالبه ويرقص بجسمه و .. النتيجة هي أنك تقذف له بالفول السوداني . إنه - الدب - لم يأت في الواقع بحركات خارقة . ولكن ربما يساعده هذا على أن يقضى اليوم وينسى الوقت ويستهلك الزمن .

- ١٣ -

الطعام لحسن . برتقال وبطيخ وعنب ومانجو وبلح و ..

١٠٠ جرام فول سودانى .

١٠٠ جرام جزر .

٢٥٠ جرام أرز محلى بالسكر .

٢٥٠ جرام عيش .

٢ كيلوجرام ونصف موز .

- ١٤ -

حوار آدمى أمام قفص «حسن» :

الإبن يسأل : مش دى شيئا يا بابا ؟

الأب يرد : لا .. دى شمبانزى .. شيئا لسه ما ظهرتش .

الأم تتدخل : يعنى يا خويا إيه الفرق ؟ (ثم للإبن) يا ضنايا .. هى دى شيئا اللى

بتطلع فى السيما مع طرزان .

الأب : يا ستى ما تمليش مخ الولد بكلام غلط من دلوقت ..

الأم : يا خويا إنت دايما تكسر بخاطر الولد ؟ والنبي ده حايطلع أشطر منك .. وبكره تشوف ..

الأب : يا ستي ، أشطر أو مش أشطر ، المهم .. ده شمبانزى ..

الأم : إنت بتقول ان ابنك شمبانزى ؟ حد كان قال لك تخلفه ؟

الأب : يا ستي آهى غلطة .. كان يوم أغبر .. يوم واحد أخذته إجازة .. خلقتى لى فيه ولد !

- ١٥ -

الشمبانزى «حسن» يجلس صامتا داخل القفص .

حسن لم يكن هو الذى قال : بعض الناس لا حيلة لهم فيما هم عليه . أشرار . غادرون . كاذبون .

مناقفون . ممثلون . نعم . ولكن : لا حيلة لهم فيما هم عليه .

- ١٦ -

نوم الظهيرة .

- ١٧ -

«حسن» يخرج من حجرته إلى قفصه . إنه لم يفعل شيئا . مجرد الخروج والجلوس فى المؤخرة . الجلوس فى تأمل . إنه يتأمل فى مظاهر الحياة حوله . فى الناس . فى الحيوانات الأخرى . فى النباتات . وفى المتفرجين .

وفى : الشمس . الأطفال . الحشائش . الفول السودانى .

وفى : الأشكال الغريبة أمامه ، التى تسمى نفسها .. بنى آدم .

وفى : الضحكات والضحكات التى يقذف بها المتفرجون عليه .

وفى : الهواء والأسوار والفراغ . إلخ . إلخ . إلخ . إلخ . إلخ

- ١٨ -

«حسن» ربما يسأل نفسه : لماذا يتجمع الناس أمامه ؟

«حسن» ربما يرد على نفسه : لأنهم رأوا ناسا آخرين يتجمعون أمامه .

«حسنية» فى حالة ثورة . هياج وتوتر وثورة . إنها تخبط الأرض بقدميها وتضرب الأسوار بذراعيها . إنها تنسحب من القفص إلى الداخل وهى فى هذه الحالة التى تنتابها على فترات متباعدة . هنا جاء دور عبد السلام . الحارس عبد السلام .

لقد دخل الحارس إلى الحجرة الخلفية . وفى لحظة دخوله هدأت «حسنية» قليلا . إنها فتحت عينيها للحظة ، ثم أغلقتها من جديد بعد أن ثبتت وجهها فى اتجاه الحارس عبد السلام . «حسنية» أصبحت كما يبدو .. مطمئنة .. أو على الأصح .. فى طريقها إلى أن تصبح مطمئنة . لقد فتحت عينيها من جديد وباسترخاء أكثر وهى تنظر إلى عبد السلام باهتمام . ربما بحذر . ربما بشوق . ربما بقلق . ولكن فى جميع الحالات .. هى تنظر باطمئنان .

إن الفراء يكسو بطنها وجنبيها ، فى لون أسود لامع . بعلامات صغيرة كثيرة كالتظيفة حول قدميها . إن ذيلها المموج هو أيضا أسود اللون وإن كان لامعا هو الآخر .

إن الحارس يتقدم منها .. متأهبا للملاطفتها . إنها تهمهم وتزجر وتستعد . إنه يبدأ فى مداعبة هذا الشمبانزى كما لو كانت أجمل امرأة فى العالم (هل الفارق كبير؟!) . إنه يداعبها بحركة هى فى نفس الوقت لطيفة وغرامية . يداعب جسمها كله من الرأس إلى الذيل ، خادشا الفقرات المرنة فى جسمها الأسود . إن «حسنية» تلوح بذراعيها فى خالعة ، وتضع شيئا فشيئا قليلا من اللطف فى عينيها . إن الحارس يداعبها مرة ومرة ومرة ومرة . وحينما داعبها للمرة الرابعة فإنها بدأت تلين شيئا فشيئا تحت تأثير هذا التملق المدهش . لقد أصدرت «حسنية» واحدا من تلك الأصوات التى تعبر بها الققط عن متعتها . إن الفارق الوحيد هو أن هذه المهمة التى تصدر من حلق «حسنية» هى على درجة من القوة والعمق بحيث أن صداها يتردد داخل الغرفة المغلقة ، مثل الذبذبات الأخيرة لأرغن الكنيسة .

أما الحارس عبد السلام ، بعد أن رأى أهمية مداعبته ، كررها من جديد بطريقة يبدو أنها أدهشت «حسنية» وقلبتاها . وحينما ابتعد عنها خطوتين ، فإنها قفزت إليه بجسم يهتز ويترنح .. فى خفة عصفور يحجل من غصن إلى غصن .. وبدأت تدلك نفسها فى

قدميه ناظرة إليه بعينيها الواسعتين . عينان بدأ اللمعان فيهما يصبح أكثر نعومة . وهمهمة بدأت تخرج من داخلها في صوت أقرب إلى صرير المنشار . تانى .. تانى .. تانى ..
 إن «حسنية» تتصرف كما لو كانت تطلب من الحارس عبد السلام أن يداعبها من جديد . حاضر . إنه بدأ يداعبها - هذه المرة بشكل مختلف . إنه يلعب فى أذنيها . يداعب بطنها . يخدش رأسها . يدغدغ جمجمتها . وهى - هى - بدأت تبدى مشاعر الإمتنان لرجلها . لقد رفعت رأسها نحوه ، وبسطت رقبتها إلى الأمام ، وعبرت عن رضائها الكامل بالرقود عند قدميه . الآن هدوء وطمانينة وثقة ورقة . لقد تحولت الشراسة فى عينيها إلى هدوء وثقة . عينان أصبحتا مشحونتين الآن بكمية غامضة من النوايا الطيبة .
 أخيرا صاح عبد السلام فى زميله محمد : هات الحقنة بقى على طول !

- ٢٠ -

القضبان تفصلنى عن «حسن» . من داخل القضبان يحس «حسن» بالتعاسة . تعاسة لا حدود لها ، وقضبان لا شرايين فيها .
 ومع أن هناك أسبابا كثيرة لتعاسة «حسن» .. إلا أن هناك أسبابا أخرى مضادة تجعله يشعر بالسعادة . إنه - مثلا .. مثلا - ليس مضطرا للإجابة على هذه الأسئلة :
 - هل يحقق له مكتب التنسيق رغبته فى دخول الكلية التى يفضلها فى الجامعة ؟
 - هل يقف له سائقو التاكسيات ؟
 - هل مات أوفقيير وزير داخلية المغرب منتحرا .. أو مقتولا ؟
 - هل توجد صراصير فى الكوكاكولا ؟
 - هل هناك .. أو ليس هناك .. اتفاق بين الدول الكبرى على الدول الصغرى ؟
 - هل ماتت المبادئ ؟

- ٢١ -

«حسن» حالته غريبة . «حسن» لم يمارس الجنس مع زوجته - المفروض أن «حسنية» زوجته - ولا مرة . منذ رآها داخل القفص منذ ست سنوات . وهو لا يحس برغبة فى ذلك . إن المؤلف هو أن بعض الحيوانات الأسيرة لاتنجب . حتى لو مارست الجنس فهى لا تنجب . ولكن .. تمتنع عن الجنس تماما ؟ تماما ؟

- ٢٢ -

بالقرب من قفص «حسن» و«حسنية» يجلسان : رجل وامرأة . إنهما فى ربيع العمر .
 إنهما يجلسان متجاورين على المقعد الخشبى . مقعد غير مريح .
 إن الرجل قمحى اللون ضخم الشارب . فى الواقع إننى أندهش : أيهما خلقه الله قبل
 الآخر .. الرجل أم شاربته ؟

المرأة تجلس بجواره . تتكلم وتتكلم .. بينما هو يستمع . بعد دقيقة بدأ الرجل يسعل .
 سعالا أشبه بعلامات التعجب التى نكتبها على الورق .

إن المرأة تفتح حقيبتها وتخرج منها المرآة . إنها معجبه بشفتيها . بوجهها الذى
 هو طويل وأبيض . بابتسامتها المترددة على شفتيها . شفتان تكشفان عن أسنان بيضاء
 وكاملة . أن عينيها بلون البندق (فاكرا البندق ؟) . الفم عريض . رذاذ من النمش يغطى
 كتفيها وشيء من الخجل يغطى وجهها . خجل صناعى كما يبدو . تمثيل .. ربما .

أن المرأة تسأل الرجل : ايه أكثر حاجة بتحبها فى الدنيا ؟

أنه ينظر إليها بلطف ويقول : أنت ..

وقبل أن يراوده إحساس بالانتصار لأنه قال لها الإجابة الصحيحة فإنه يسألها : طيب
 وأنت ؟ ايه أكثر حاجة بتحبها ؟
 إنها تفكر لحظة وتقول : أنا .

- ٢٣ -

«حسن» و«حسنية» فى حالة غرام شفوى . غرام مع وقف التنفيذ . إنهما يتبادلان
 النظرات .. ربما أكثر .. لا أعرف بالضبط . كل ما أعرفه هو أنهما محرومان بالتأكيد من
 شيء هام : القبلة . نعم . الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يعرف ما هى القبلة .

- ٢٤ -

«حسنية» فى حالة توتر . لقد اقتربت من «حسن» . فى البداية حاولت أن تستفزه .
 الآن تقترب أكثر .. وأكثر . إنها تحاول أن تتملكه . تثيره . تغريه . لا .

- ٢٥ -

العصر . حمام لـ «حسن» .

- ٢٦ -

أمس قال لي الدكتور حسن حافظ مدير حديقة الحيوانات بالجيزة : «في الحيوانات نجد الصراحة والوضوح والبساطة . في دنيا الإنسان نجد العكس . إنسان يصادقك ثم يطعنك في الظهر . إنسان يحبك .. ثم يغدر بك . مع الحيوان لا يمكن . إنه دائما واضح . إنه لا يهاجم إلا في حالتين اثنتين : الجوع .. والدفاع عن النفس . وحتى في هذه الحالة الأخيرة فإنه أحيانا - كالأسد مثلا - ينذر خصمه أولا . يا أخى .. هو الواحد بيحب الحيوانات من قليل».

- ٢٧ -

الشمبانزى «حسن» في حالة اعتكاف . لقد ترك القفص ودخل إلى حجرته معتكفا وجالسا وصامتا . إنه صامت كظله . حزين كعينيه . عينان عميقتين في حزنهما بما يتجاوز قدرة وحق أى عينين في العمق أو الحزن . عينان تتسولان من أى إنسان أن يفهمه .

وعندما دخل الحارس عبد السلام إلى الحجره نهض «حسن» نصف واقف .. فى شبه تحية منه للحارس . حقيقى .. جنتلمان . إن «حسن» ليس شادا . ولكنه أيضا ليس حيوانا عاديا . بجسم نحيف . بجلد خشن أسمر . بوقار غير مقصود فى حركاته . إنه يوحى إلى بأنه ينتمى إلى الندره القليلة من الحيوانات التى يستطيع الإنسان أن يتحدث إليها وهو مطمئن .

أننى أحيانا .. بينما أبادل الحديث مع حارسه .. أرى «حسن» يقفز نحونا متابعا جزءا من ثرثرتنا . وبصرف النظر عن ما نناقشه .. السياسة .. الرياضة .. الضرائب .. حالة الطقس .. الغلاء .. أو حتى الحياة عموما .. فإن رأى «حسن» واحد فى جميع الحالات . رأيه هو : الصمت . أنه بين وقت وآخر قد يهمهم : هع ع ع ! وبهذه ال «هع» يعتبر «حسن» أنه قد فسر كل شىء ، وقال المختصر المفيد .

وحيثما أنظر إليه محاولا اكتشاف ماضيه .. فإنه لا يتحرك . إنه يحمل رأسا ضخمة فوق كتفيه . وهو يكتفى غالبا بأن يهزها يمينا ويسارا .. كما لو كان يخبرنى بأن الماضى هو الماضى .. وهو يفضل ألا يتحدث عنه . يوما ما .. ربما . ولكن .. ليس الآن .

- ٢٨ -

ما هي بالضبط - بالضبط - أزمة السينما المصرية ؟
 أن «حسن» لا يعلق على هذا السؤال .. ولا على أى سؤال آخر .

- ٢٩ -

قصة حب ترددت طويلا فى حديقة الحيوانات . «حسنية» كانت فى قصة حب درامية مع حارسها . لقد ربطتها بحارسها قصة حب . علميا تعتبر قصة تآلف . بحيث أنه كلما كان يدخل عليها فى القفص .. فإنها كانت تدور وتدور وتلف حول نفسها داخل القفص العريض الواسع . إن عينيها تدوران بسرعة أكبر من جسمها . عينان تدوران من الأرض إلى السقف .. ثم من السقف إلى الأرض .. بشكل متتابع وعصبى .
 وعندما جلس الحارس - بلا خوف - إلى جانبها .. فإنهما بدأ يلعبان معا .. كالعادة . إنه يجذب أذنيها ويدلكهما بحرارة .. ضاغظا على الأجزاء الرقيقة فى جسمها . وهى - «حسنية» - كانت تتركه يفعل بها ما يشاء .

إن الحارس تعلم بالوقت والتجربة معنى كل انحراف فى صوتها .. وكل تعبير فى عينيها .. وكل نزوة فى تصرفاتها .

وفى مرة توقفت أصابع الحارس عن تدليكها . لقد توقفت لأنه انشغل بالنظر إلى سيدة رائعة الجمال تسير أمامه فى الحديقة . فى الواقع أن الحارس لم يكن ينظر . كان يحملق . إنه يحملق فى السيدة مأخوذاً بجمالها .. منبهرا بطلعتها .. مسحورا بمشيتها .. البعض يقول : خلاعتها .

إن تنبيهات «حسنية» لم تجعله يفيق . إن مهماتها لم تجعله يستأنف التدليك .

وعندما أفاق الحارس من نوبة ذهوله بعد دقيقتين ونظر إلى «حسنية» .. محاولا أن يفهم سر اعتراضها .. فإنها تبادلته معه نظرة مشحونة بالمعانى . نظرة قاتلة . نظرة سحبت منها كل الثقة التى وضعتها فيه طوال سنوات وسنوات . أنها ارتجفت . أنها ارتعشت . وعندما نظر إليها من جديد وجد فى عينيها وميضاً كالبرق ، ثم : أغلقتهما .

عندما فتحت «حسنية» عينيها من جديد بعدها بلحظات بدت كالساعات .. لم تكن أبدا هى «حسنية» التى عرفها الحارس من قبل . لقد انتهى كل شىء .

إن كل شيء تجمد عند تلك النقطة . إن قصة الحب الطويلة .. أو قصة التألف .. انتهت لنفس السبب الذى تنتهى عنده كل قصص الحب العظيمة . انتهت بسبب : سوء الفهم . فليسبب ما .. يشك طرف فى خيانة الطرف الآخر . إن عزة النفس تمنعهما من الوصول إلى تفسير . إنهما يتشاجران ويفترقان بدافع من العناد والمكابرة .

ربما لو كانت «حسنية» امرأة .. لو كانت إنسانة .. فربما كانت تكفى لحظة واحدة ، أحيانا نظرة واحدة ، لكى ينهار العناد وتسقط المكابرة . ولكن فى دنيا الحيوان .. لا يمكن . من يومها .. لا يمكن .

- ٣٠ -

سؤال محتمل من «حسن» : لماذا يرتبط الإنسان أحيانا بالحيوانات ؟ بالكلاب أو القطط مثلا ؟

إجابة محتملة من «حسن» : نحن نرتبط بالحيوانات أحيانا .. ليس لأنها مخلصة .. وليس لأنها صادقة .. ولكن لأنها : لا تنتقدنا .

- ٣١ -

اليوم هو الجمعة .

- ٣٢ -

الزحام حول «حسن» و«حسنية» وصل إلى أقصاه . أطفال وأمهات وآباء . شيوخ وشبان وأفندية .

من بين الأفندية واحد يريد أن يتسلى . لقد فكر قليلا .. ثم اختفى . بعد دقيقتين عاد مع أصدقائه .. حاملا ساندويتشا فى يده .. وقذف به إلى الشمبانزى «حسن» داخل قفصه .

تناول «حسن» الساندويتش .. وبدأ يأكله . شكرا .

بعد لحظتين توقف الساندويتش فى حلقوم الشمبانزى «حسن» . إن جسمه يرتعش وينتفض .. عيناه تتسعان وتتسعان . شيء ما انحسر فى رقبته . شيء لا يريد أن يدخل إلى معدته .. أو أن يخرج من فمه ..

ماذا جرى ؟

ضحك الشاب صاحب الساندويتش لزميله قائلاً : غريبة ! .. أنا حطيت له المسمار
في الساندويتش .. وهو مش قادر يبلمه ؟ !

رجل يسأل الشاب بحنق وغيظ : وليه يا إبنى يعنى الأذية دى ؟ ليه حطيت له مسمار
في الساندويتش ؟

رد الشاب : إيه يعنى ؟ آهى تسالى ..

- ٣٣ -

الإنسان حيوان غادر .